طريقُ الخروجِ

الكتاب : طريقُ الخروجِ

الكاتب : جمال الجزيري

تصميم الغلاف : محمد محسن

تنسيق داخلي : يوسف الفرماوي

الطبعة : الأولى٢٠٢٠

رقم الإيداع:2020/4116

الترقيم الدولي : 978-977-6783-51-5

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

0222017260 – 01550096215

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طريقُ الخروجِ

رواية

تأليف

جمال الجزيري

أبوابٌ

«مـن المثـير للاهتـمام، أن مثـل هـذه القـوة المحجوبـة قـد يصاحبهـا أيضـا حـكي القصـص، حيـث إن القصـص يتـم حكيهـا غالبـا في الليـل، الوقـت الـسِّرِّيّ المتّسـم بالحـذر. ولـدى شـعوب ماندنجـو فئـة مـن الكلـمات ذات قـوة خاصـة، كيـما kuma، ويتـم النطـق بهـا فقـط في الليـل خـلال حـكي الخرافـات، والأسـاطير والحكايـات. وهـي تجسـيد للمعـارف المموهـة، تتيـح للأفـراد في الجماعـات الكشـف عـن مشـاعرهم اسـتنادا إلى المواربـة، دون المخاطـرة بتبديـد الـروح الحيويـة».

روجـر د. إبراهامـز، حكايـات شـعبية أفريقيـة (الجـزء الأول)، ترجمـة عـزت عامـر، ص 72-73

«يا مُرَبّي الماشية، أعيدوا إليّ معزاتي،
المعزاة التي أعطاها لي رعاة الماعز،
الرعاة الذين دفعوا لي مقابل عجينتي،
العجينة التي أعاطاني إيّاها الساحقاتُ بالهَاونِ،
الساحقات بالهاون دفعن مقابل عسلي،
العسل الذي أعطاه لي جامعو العسل،
جامعو العسل الذين دفعوا لي لقاء وعائي،
الوعاء الذي أعطينه لي حفاراتُ الطين،
حفّارات الطين اللائي دفعن مقابل معزقتي،
المعزقة التي أعطاها الظبي لي،
الظبي الذي دفع غرامة مقابل بِسِلَّتِي.
أَمْسَكُوا به وضربوه، وعندما كان فاقد الوعي تماما، أخرجوه من القرية، بعد أن ظنوا أنه ميت.»

حكاية «معزقة الأرنب البري»: روجر د. إبراهامز، حكايات شعبية أفريقية (الجزء الأول)، ترجمة عزت عامر، ص 157

«دلَّتْه على السِّكَّة وقالت له: تلتقي السراي مربوط قدَّامها جَدْي وكلب وقدام الجدي لحمة وقدام الكلب برسيم تشيل اللحمة من قدام الجدي ترميها قدام الكلب وتشيل البرسيم ترميه قدام الجدي يتفتح لك الباب تخش تقطع الوردة تقطعها وتنّك طالع ما تتلفتشي وراك أحسن إن اتلفّت تتسخط تبقى حجر زي المساخيط هناك»

حكايات شعبية مصرية، جمع وتدوين: فيلهلم شبيتا، تحقيق ودراسة: مصطفى ماهر: «حكاية وردة عرب زنديق» ص 157

فلان الفلاني اللي كان يومها جنبي
ساعة لمّا بدأوا في ضرب الرصاص،
فلان الفلاني اللي معرفش اسمه
فدايمًا بقول: يا بن عمى وخلاص،
فلان اللي سابلي بقية سندوتشه
ليلة لمّا شافني بغنّي وجعان،
فلان اللي مش فاكرَة غير شكل وشه
فلان اللي عدّاكي جوه الميدان،
فلان اللي فتِّشني بالْابتسامة
فلان اللي قال هو فعلا حيمشي،
فلان اللي قال لي طريق السلامة
ساعة لما قولنا زهقنا وحنمشي،
فلان اللي مطلعش جوّه البرامج
وكان بس صوته في قلب الهتاف،
فلان اللي روَّح أكل واستحمَّى
فلان اللي ضايع في وسط الآلاف،
فلان اللي غرَّقلى خلّ الكوفيَّة
وشالني ساعة لما جت طلقه فيّا،
فلان اللي مااااااات يومها تلزمله دِيَّة
من ابن الفلاني اللي كَلْ لحمه حاف.

كلمات: مصطفى إبراهيم
غناء: باسم وديع

مقدمة

سجّل الراوي الذي اسمه راوي في الغالب مقاطع هذه الرواية على جهاز التسجيل بهاتفه في الفترة من 27 مارس 2011 حتى 27 ديسمبر 2014. واستلمتُ كارت الذاكرة في 27 مارس عام 2015 من ذلك الذي لم أعد أذكر اسمه ولا أعرف إن كان اسمه حقيقيًّا أم لا، فلقد اتفق معي على كل التفاصيل – التي كانت مجحفة في حق راوي، وفي حقّي أنا شخصيًّا بصفتي مُخْرِجًا سرديًّا له مكانته ويسعى لتأمين احتياجات أسرتِه، ولكنني لم أكتشف هذا الإجحاف إلا بعد أن كان الذي كلّفني بالتفريغ قد اختفى في نهاية عام 2015 تقريبًا. ورحم الله راوي إذا كان قد ذهب إلى العالم الآخر، ورحمه الله أيضا ورزقه الصحة والعافية إذا ما كان ما زال في براح الحياة، فأنا بصراحة لا أفضّل استعمال كلمة «القيد» مع الحياة، بالرغم من الاستفحال الذي يتفشى أثناء كتابة هذه السطور وبالرغم من أنني وعيالي كدنا نموت جوعًا بالمعنى الحرفي للتعبير. وما شجعني على معاودة النظر في سطور هذه الرواية ومراجعتها تمهيدًا للتصرّف فيها بالنشر هو أن أحداثها وذكرياتي مع تفريغ ملفاتها صارت الآن حلمًا، بعد أن كنتَ أدرك ساعتها أنها كابوس، وسبحان مبدّل الأحوال.

قمتُ بتفريغ الملفات من على كارت الذاكرة تفريغًا أوّليًّا في الشهور الأخيرة من عام 2015، وقسَّمتُ الملفات إلى عدة روايات – كما أشرتُ في رواية أخرى – ومنها هذه الرواية التي لم أقم بإضافة أي شيء إلى محتواها الأصلي إلا بعض الفقرات الانتقالية التي وضعتُها بين بعض المقاطع حتى تخفَّ كثافة الرواية وتستطيع يا قارئي وقارئه العزيز أن تقرأها بسلاسة وفهمٍ، بعيدًا عن الغموض وعن القفزات المفاجئة في الأحداث.

كـما قمـتُ بدمـج بعـض المقاطـع الصوتيـة ببعضهـا البعـض حتـى تُشَـكِّلَ مـع بعضهـا فصـلا مـن فصـول هـذه الروايـة، دون أن أصـادرَ عـلى حقّـك يـا قـارئ الكريـم في أن تربـط هـذا الجـزء مـن هـذا الفصـل أو ذاك بفصـل آخـر لا يوجـد فيـه، أو في أن تعيـد ترتيـب الأحـداث بالطريقـة التـي تراهـا مناسـبة ف حبكـة جديـدة غـير الحبكـة التـي اسـتقرّ رأيـي عـلى تقديمهـا لـك هنـا. كـما أننـي قمـتُ بتخفيـف اللغـة، مثـل تخفيـف الشـاي الثقيـل مـن خـلال صـبّ قـدر مـن المـاء السـاخن عليـه، كي لا يسـبب عَـسرًا أو تلفًـا بالمعـدة. وأنـا يـا قـارئي لا أريـد لـك أن تتجـرّع عـشرات الأدويـة مـرة واحـدة، ولذلـك أدخلـتُ بعـض الجمـل وسـط الجمـل لتوضيـح شـفرة رمـز كانـت غائبـة أو إضافـة جانـب لصـورة ناقصـة أو الإفصـاح عـن صـورة ثقافيـة أو لغويـة غامضـة، ومـا إلى ذلـك مـن آليـات تعرفهـا يـا قـارئي جيِّـدًا عنـد إعـادة صياغـة نـص مـا أو تنقيحـه أو تصويبـه، الـخ.

لم أشـأ أن أعـرب اسـم بطـل الروايـة «راوي»، فلـم أرفعـه أو أنصبـه أو أجـرّه في هـذه المقدمـة أو في مـتن الروايـة، كي لا يحـدث الخلـط بـين كونـه اسـمَ «علـم» وكـون اسـمه وظيفـة قصصيـة، ولأسـباب أخـرى خاصـة بمعنـى الرفـع والنصـب والجـر، وهـو في حِـلٍّ منهـا الآن.

بالنسـبة للفصـل الأول، كان أصعـبَ فصـول الروايـة إخراجًـا، فلقـد قـام راوي بتسـجيله عـلى فـترات متباينـة ولم يسـجله متواصـلا أو في مقاطـع متتاليـة كـما في الفصـول الأخـرى. ويبـدو أن راوي أدرك أن الصـور الضبابيـة التـي حكاهـا في المقطـع الأول مـن مقاطـع الروايـة عـلى الهاتـف سـتجعل القـارئ مرتبـكًا ومشوَّشًـا، فلقـد كانـت ذاكـرة راوي ذاتـه مرتبكـة ومشوَّشَـة وضبابيـة وحائـرة، تصـارع في سـبيل اسـتعادة علاقتهـا بحيـاة صاحبهـا وربـط أجـزاء هـذه الحيـاة ببعضهـا البعـض. ولذلـك سـجّل راوي المقطـع الأول بعـد أن عـثر عـلى هاتفـه وبـدأ مـن نقطـة القفـز مـن فـوق السـور. ولكنـه عـاد في مقاطـع لاحقـة وسرد تفاصيـل أكـثر، وكأنـه كان في البدايـة

يسجل الخطوط العامة كي لا تتوه من ذاكرته. وعندما صَفَتْ رأسُه ووجد الوقتَ الكافي لتسجيل التفاصيل الأخرى، سجّل المقاطع اللاحقة. واستعمل فيها الزمن الماضي مع أنه يستعمل الزمن المضارع في الكثير أحداث الرواية، وكأنه يقول لنا إن أحداث الفصل الأول صارتْ من الماضي وعليه أن يتجاوزها بكل تفاصيلها حتى يُكمل طريق الخروج.

وهناك نقطة أخرى خاصة بجميع الفصول تقريبًا، وهي أن راوي قد يجعل المقطع الصوتي الواحد مكوّنا من عدة مقاطع فرعية، فيقوم بتسجيل جزء في الملف، ثم يستخدم كلمة «قطع» أو «نقل» أو «cut»، ثم يبدأ في التسجيل من زاوية مختلفة داخل المقطع الصوتي ذاته، وكأنه مُخرج سينمائي يقوم بتقطيع المَشاهد بطريقة معينة تجمعها وتفصل بينها في آن، ولذلك وضعتُ ثلاث نجوم (***) بين هذه المقاطع التي تنتمي للفصل الواحد عند تفريغ الملفات الصوتية. ومن الواضح أن راوي يستخدم الأزمنة بطريقة خاصة أيضا، فنجده داخل المقطع الصوتي الواحد يستخدم المضارع والماضي في الكثير من الأحيان.

تبقَّتْ نقطة أخيرة لا بدَّ أن أشير إليها قبل أن أتركك مع الرواية، وهي عنوان الرواية ذاته. فمع أن راوي شخصية حقيقية، ومن الواضح أنه كان مُحْتَجَزًا أو مُقْعَدًا بالفعل في جهينة، كما يتضح من كلام زوجته في بعض المقاطع الصوتية، كان يدرك أن ما يرويه قد يتحوّل إلى رواية؛ فمن الواضح من كلام أحد إخوته أنه يكتب القصص، كما أن راوي ذاته وضع ملفات هذه الرواية في مجلَّد فرعي داخل المجلد الكبير، وأعطاه «رواية» عنوانًا. واخترتُ العنوان الذي وضعتُه لهذه الرواية من بين خيارات كثيرة كانت متاحة في الملفات الصوتية ذاتها، فلقد كان راوي في نهاية كل مقطع صوتي يقترح عنوانا يليق بالمقطع، ويقول قبل العنوان المقتَرَح: «يمكنك أن تسمّيَه...» ويذكر العنوانَ المقتَرَح بعد هذه الصيغة المتكررة في كل المقاطع الخاصة به، وليستْ المسجّلة

بصوت زوجته التي كانتْ تأتي كل شهر تقريبا من شَقَّتِهم في الجيزة إلى جهينة. واخترتُ عنوان «طريق الخروج» باعتباره عنوانًا أوسع أو أوضح من العناوين الأخرى. وتقتضي الأمانة أن أذكر لكم بعض العناوين التي انتقيتُها من نهاية المقاطع الصوتية، ومنها:

- طيور تكتم أنفاسها (وكنتُ قد اخترتُه للمسودة الأولى للرواية بعد تفريغها من الملفات الصوتية. ولم أشكِّل كلماته ولم أُظْهِرْ حركاتِه الإعرابية، للدلالة على كتم الطيور لأنفاسها، كما يحدث بالفعل في الرواية، استعدادًا للدفاع عن راوي ومساعدته أو ذهولًا مما يحدث معه، وللدلالة أيضا على أن هناك ما ومَن يكتم أنفاس هذه الطيور بكل ما تحمله من رموز ومغزى)

- ذاكرة أرض (وكنتُ قد اخترتُه بعد مراجعة المسودة الأولى، وقبل أن أقوم بإدراج إضافاتي، لأن مفهوم الأرض واضح جدًّا في الرواية، حتى لو كان هذا الوضوح يجمع بين النقيضين أو النقائض، بما للأرض وما عليها، باتساع أو ضيق معناها. كما أن فكرة الذاكرة تُثْقِل على راوي ذاته، وخاصة عندما يقارن بين ما كان وبين الحاضر، عندما يعاني من فقدان الذاكرة والتشويش التي يغلب عليه أحيانا عندما تبدأ ذاكرته في الرجوع إليه، ويبدو أن سلوك إخوته هو الذي أعاد له ذاكرتَه، وإن كنتُ غير متأكد من ذلك، لأن راوي ذاته يبدأ بمشهد إخوته وببداية استعادته لذاكرته، دون أن يذكر إن كان هناك شيء قد سبق هذا المشهد وهذه البداية يمكن أن يكون قد لعب دورًا في بداية يقظته)

- كوميديا طافحة (وكنتُ قد اخترتُه عندما بدأتُ أشكُّ في حقيقة ونوايا الشخص الذي كلَّفَني بالقيام بإخراج الملفات روائيًّا، كما أن هناك بعض جوانب الكوميديا في الرواية ذاتها، وخاصة في سلوك إخوة راوي الذين كنتُ أظنُّ في بداية استماعي للملفات الصوتية أنهم ساخرين في سلوكهم وأنهم يفعلون كل ما يفعلونه كنوع من التسلية أو التمثيل، ولكن اتضح أنه حقيقي تماما)

- لا شيء يبقى (وكنتُ قد اخترتُه عندما اختفى ذلك الشخص تمامًا ولم يعد يردُّ على اتصالاتي، وكنتُ قد أدركتُ أن النية من وراء تكليفي بالإخراج السردي لا علاقة لها براوي ولا بتوثيق رواياته قبل أن تضيع، وإنما كانت تستهدف توريط راوي وكلَّ الكتّاب الذين قد ينتهجون نهجه في صورة ضبابية لا تهدف إلا إلى الضياع وتغييب القارئ في متاهات لا نهاية لها، وعندما أدركتُ أنَّ أجري مقابل الإخراج السردي ضاع عليّ)

- يا غُلْبَكَ يا راوي (وكنتُ قد اخترتُه بعد قراءة المسودة الأولى وقبل أن أقوم بإدراج إضافاتي، فلقد فكّرتُ في التلاعب بمفهوم الغُلْبِ في صيغة الجمع بمعناه اللغوي الأصلي الذي يعني الالتفاف والكثافة والعزَّة والتمنُّع والامتناع، نظرا لكثافة طبقات الرواية قبل تخفيفي لها، ومعنى الغُلْبِ في اللهجة العامية المصرية التي تعني المغلوب على أمره الذي لا يستأهل ما يجري له، وأدخلتُ «يا» قبل «غلبك» للتأكيد على الحميمية والقُرب والطابعِ الشفاهي بالرغم من أن الرواية في صيغتها الأولى كان يبدو عليها أنها بعيدة قليلا عنك يا قارئنا الكريم وقارئتنا الكريمة. كما أنني أردتُ أن أعزف على وتري الخاص، فأنا راوٍ أيضًا ورويتُ الكثير من القصص بمقابل ماديّ بالطبع، وكنتُ قد خرجتُ للغربة منذ سنتين حتى أجد دخْلًا يكفيني ويكفي زوجتي وأطفالي، بعد أن بدأت الأسعار تقفز قفزات لا يستطيع دخلي أن يحتملها، وها أنا مغلوب على أمري، فلا أستطيع الرجوع، ولم يعد دخلي هنا في الغربة يكفي إلا لمستلزمات حياتنا هنا، مع أنني عندما جئتُ إلى هنا كنتُ أستطيع توفير نصفه)

- الخروج الصغير (وهو يتناسب مع حالة راوي في نهاية الرواية، على أساس أن خروجه من بلدته هو الخروج الصغير، وستتبعه أنواع أخرى من الخروج بمعناه الإيجابي المرتبط بالتحرر والانفتاح وغلق الأبواب التي لا تولِّدُ إلا الاستنزاف بكل معانيه)

- بداية أولى (هو عنوان ساخر وحقيقي في الوقت ذاته، لأن إخوة راوي يُكثرون من استخدام كلمة البداية والفعل يبدأ في مواقفهم مع راوي في بداية الرواية وفي كلامهم مع بعضهم البعض، وكأن هذه البداية نقطة دوران لا يستطيع البادئ أن يخرج منها؛ فبعد أن يقطع شوطًا على طريق ما بعد البداية يعود إلى نقطة الصفر. ويستخدم راوي كلمة البداية بمعناها الحقيقي، بمعنى أن طريق خروجه من بيته إلى أن يصل إلى باب البلدة الذي يخرج منه أيضا ما هو إلا خطوة على طريق أكبر سيفتح من خلال حركته عليه أبوابًا جديدة تعوّض الأبواب التي أغلقها والأبوابَ الأخرى التي ينوي أن يغلقها بعد أن يلتمَّ شملُه مع أسرته من جديد)

- عاصفة زجاج مكسور (وله علاقة مباشرة ببداية الرواية، وعلاقة غير مباشرة بالرواية ككل، على أساس المقولة التي تنفي إصلاح الزجاج الذي انكسر، ولا يمكن الرجوع إلى نقطة أولى أو إلى ما قبل انكساره. وترتبط العاصفة بأم راوي عندما تخرج من بيتها القديم لتنقذ راوي ذاته، ولكن الزجاج يحاصرها ويؤكد على عجزها عن تجاوز العقبات التي تواجهها. ويلعب الأبناء الدور الوحيد في انكسار الزجاج بمعناه الحرفي، مع أن الزجاج زجاج راوي ذاته وزجاج كوب الشاي الذي يشربه).

- والأرضُ إذا تنفَّسَتْ (وهو عنوان يرتبط ارتباطا وثيقا بالآية القرآنية «وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ» التي أقسم فيها ربُّ العِزَّة سبحانه وتعالى بالصبح في بداياته باعتباره مظهرًا من مظاهر الخَلْق والكون وتمهيدًا لتأكيد أمانة سيدنا محمد ونبوته وصدقه وإعجاز الله سبحانه وتعالى في رحلة الإسراء والمعراج. كما يرتبط هذا الصبح في الخيال الشعبي بالأساطير والتحولات وتداخُل الكائنات ووحدة الوجود، وكأن الصبح يتنفّس ليمزج أنفاس الخَلْق بأنفاس الناس الذين يخرجون بعد الفجر سعيًا وراء أرزاقهم. ولكنني آثرتُ الابتعاد عن هذا العنوان تجنُّبًا للمشاكل التي قد تصدر عن الناس الذي يصطادون في الماء العَكِر)

- عسل أسود (وهو عنوان يتداخل في ثنايا الرواية ذاتها مع فيلم «عسل أسود» للفنان أحمد حلمي، ويتداخل مع الكوميديا السوداء في الفيلم وفي الرواية، والرواية تستحقُّ هذا العنوان بامتياز. وتجنبتُ استخدام هذا العنوان لسببين: أولا، سبب سياسي، لأن الفيلم فيلم سياسي بالرغم من أن ظاهره اجتماعي تماما، وابتعدتُ عنه كي لا يأتي أحد ويرفع عليّ قضية تتهمني بأنني أعكر السلم العام وأن أحداث الرواية مقصودٌ بها الوضع السياسي العام، وأنا شخصيا ابتعدتُ عن السياسة عندما وجدتُ أنها أكبر منّي وأنني لم أعد أفهم شيئا فيما يدور من أحداث، وأنها تنتهك كل قوانين المنطق والأرض والانتماء والوطن. ثانيا، سبب فنّي ورقابي خاص بحقوق الملكية الفكرية، فقد يرفع عليّ مُخْرِجُ الفيلم قضيّة بأنني سرقتُ عنوان فيلمه، مع أن العبارة ذاتها عبارة شعبية ويستخدمها الناس بالمعنى ذاته منذ عشرات وربما مئات السنوات. وأي مُخْرِج سرديّ في زماننا هذا لا يمكن لشهرته ولا لنفوذه أن يصل إلى نسبة ضئيلة من شهرة مخرِجٍ سينمائي ونفوذه، فلقد اتضح لي أن نفوذ المخرجين السينمائيين والتلفزيونيين كبير جدا في الوقت الحالي ويتجلى في كل شيء وفي كل مجال. ولا يعني ذلك أنني أتهم مخرج «عسل أسود» بشيء، فأنا أستمتع بالفيلم وببراعته تمثيلا وإخراجًا وتصويرًا ومونتاجًا)

- أرض النفاق (ويرجع عدم اعتماد هذا العنوان إلى الأسباب نفسها التي دعت إلى الابتعاد عن عنوان «عسل أسود»، فأرض النفاق عنوان رواية وعنوان فيلم مأخوذ عن الرواية ذاتها. ومع أنه يصلح لأن يكون عنوانا للرواية الحالية ولأن يقيم علاقة مع الرواية السابقة والفيلم، فضَّلْتُ الابتعاد عنه تجنُّبًا للمشاكل من جهة، ولكونه عنوانًا مباشرًا من جهة ثانية، ولكونه لا يغطّي كل جوانب الرواية، فالنفاق وظلال أرض النفاق الاجتماعية والسياسية والدينية مجرد جانب واحد من جوانب الرواية)

وهنـاك عناويـن أخـرى كثـيرة لا داعـي لذكرهـا تركِّـزُ عـلى حـدثٍ أو آخـر مـن أحـداث الروايـة، مثـل العنـوان الخـاص بالميـت الـذي يبحـث عـن جسـمه منـذ سـنوات، ومشـهد الجنـازات التـي لا أعـرف إن كانـت حقيقيـة أم تمثيـلًا أم صـدى للمخـاوف التـي تـدور في نفـس راوي، ومشـهد الخـروج مـن البـاب الكبـير للبلـدة والسـور الـذي صـار يحيـط بهـا، ومشـهد الجبانـة بـكل تجلياتـه وروعتـه. وكلهـا عناويـن خاصـة بالمـوت بشـكل أو بآخـر، وأنـا لم أعـد أؤمـن بالتركيـز عـلى الكآبـة والسـوداوية في عناويـن النصـوص، فأعـرف، يـا عزيـزي القـارئ وعزيـزتي القارئـة، إن حياتكـما الآن صـارت لا تحتمـل مثـل هـذه الكآبـة، فلديكـم الآن في قلوبكـم ورؤوسـكم مـا يكفيكم، وسـتعتبرون الروايـة محاولـة للخـروج والتنفُّـس.

وأخـيرًا، أودُّ أن ألفـت الانتبـاه إلى نقطـة صغـيرة ولكنهـا تتضافـر مـع كافـة الأسـباب المذكـورة أعـلاه: لم أشـأ أن أضـع مـا قمـتُ بإدراجـه في هوامـش أسـفل الصفحـات، وقمـتُ بإدخالـه مبـاشرةً في مـتن الروايـة، كي لا تتشـتّتوا بـين الهوامـش والمـتن. وأتمنـى أن تنـال محاولـة إخراجـي للروايـة سرديًّـا إعجابكـم وانغماسـكم في قراءتهـا، وضعَنـا اللـه وإياكـم عـلى طريـق الخـروج والـبراح، وأغلـقَ اللـهُ الأبـوابَ التـي تهـدُّ الواحـدَ منّـا وتجعـل حنينَـه مشـلولًا.

المُخْرِجُ السَّرْدِيُّ
20 يوليو 2018

الفصل الأول

لم يكن منامًا، ورفضتُ بشدَّةٍ الاعترافَ بأنه يقظة. ماضٍ قريب، منذ ساعات أو دقائق؛ فها أنا على الطريق، أبتعد كي لا أجد نفسي غارقًا في كل شيء، دون أن أستطيع الخروج أو تصفوَ رأسي. صحيح أنها لم تصفُ صفاء كاملًا حتى الآن، لكنها بداية، فلييسرْ اللهُ كلَّ البدايات، ولأواصلْ سيري في أرضي حتى أخرجَ إليّ وإلى الفضاء الوسيع. اللهم آمين...

كنتُ متكئًا على الدِّكَّة أمام البيت داخل السور أرتشف كوب شاي جهَّزتُه بالنعناع الطازج من غيطنا، نعم غيطنا، نون الجماعة؛ هل يدفع الإنسان مالًا في الكلام؟! كان فعلٌ ماضٍ، وها أنا خارج على الجماعة، ها أنا خارجًا على الجماعة وعلى نونها!! هكذا سيقولون، وأنا أقول إن الخروج دخول من باب آخر، باب يستطيع أن يستوعب ما كان وما صار. لِم لا تأتي وتشرب معي الشاي؟! ها هي أصالة تقول في مَنازِلها: «ويا دنيا نفسي ارتاح؛ في قلبي جراح بطول النيل».

نعناعٌ زرعتُه مع أبي في يوم ما، كأنه كان بالأمس القريب، أو البعيد، فمَن الذي يستطيع أن يقيس زمنًا بزمنٍ آخر؟!! مَن الذي يستطيع أن يقول إن شهرًا ممتلئًا يقلُّ طولا عن سنوات؟!! فها هي السنوات تتداخل في رأسي، وتقول لي إنها نقطة التقاء تلتقي فيها كل الأشياء، فلا تعرف مَن القديم ومَن الجديد، ولا ما القديم وما الجديد.!! لكنه لقاءُ حياةٍ على كل حال، وفَرِحْتُ بالرغم من كابوسية المشهد، فها أنا أعود إليَّ، يتعارف جسدي وإدراكي وتاريخ رأسي من جديد، وأتذكّر الوجوه حولي وأتعامل معها على أنني واقع وأنها واقع، كأن جُرحًا لم يكن، وكأن رأسًا لم يهوِ عليها شيء.

ابتسمتُ بالرغم من أنَّ الصورَ التي تتداخل في ذاكرتي مشوَّشةٌ؛ ففي هذا الطوفان الذي لا تتميز فيه الصورُ عن بعضها البعض كثيرًا، اكتشفتُ حياةً تترابط، ووجدتُ ملامحَ تعود بعد تهجيرِها لتصلَ ما انفصلَ من تاريخي. لا بأس. سيتضح لاحقًا ما أراه باهتًا الآن، سأعودُ إليّ عما قريب، سيشْغَلُ كلُّ شخص وكلُّ شيء مكانَه بعد أن يهدأ طوفان التداخل ويرسوَ الفلكُ حيث تكون الحياة وحيث أكون أنا من جديد فعلًا تامًّا وناقصًا ومكمِّلًا ومكتملًا.

يا الله! لا حولَ ولا قوّة إلا بالله! هل قلتُ غيطنا؟ كان غيطنا في اليقظة التي كنتُ أعترف بها، لكنه تحول في اليقظة التي لا أستطيع أن أعترف بها إلى بيتهم. تجمعوا حولي كمشهد من مسرحية «ريا وسكينة»، ولكنه كان أشدَّ تكثيفًا. كان السور يحدُّ الدِّكَّةَ التي أتكئ وأمدد رجليّ عليها، من جانب، وأحاط ثلاثة منهم بالجانب المقابل له، ووقف واحد منهم بِعَرْضِها، ووقف خامس بعرض الدكة الآخر. تبادلوا النظرات فيما بينهم، وكنتُ أراهم كما لو كانوا في مشهد تمثيليٍّ ساخر يتعامل بجدية تامة مع موقف عابر أو روتينيٍّ أو معتاد، وكأنهم يريدون أن تقلبَ سخريّتُهم الموقفَ رأسًا على عقبٍ.

استقرَّ اتفّاقٌ ما بين نظراتهم، وتحرّكوا ببطءٍ دون أن تنتقل أقدامُهم، لأنهم كانوا يحيطون بي بالفعل ولا توجد مساحة بيني وبينهم يتحركون خلالها نحوي. مدُّوا أياديهم نحو كوب الشاي الذي كنتُ أمسك به في يدي. وأمسكوا به بحرص وهدوء كي لا ينسكب في الغالب، ومثّلوا مشهدَ انتزاعِ الكوب من يدي وكلٌّ يضع جزءًا من يده على الكوب كي يكونوا جميعا شركاء فيه على ما يبدو. وفي لمح البصر برق في رأسي مشهد اقتراح سيدنا محمد بعد حريق الكعبة وإعادة بنائها أن يضع الحجر الأسود على ثوب يمسك بأطرافه ممثّلون لكل القبائل، وتداخلَ هذا المشهدُ مع مشهدِ لاحقٍ تآمَرَتْ فيه القبائل على سيدنا

محمـد وهـم يخططـون لقتلـه جماعـةً كي يتفـرّق دمـه بينهـا. لا أعـرف لمـاذا ابتسـمتُ للمشـهد مـع أن كل شيء يقـول إن نقطـة الالتقـاء ليسـت إلا بدايـة شـتات. وخطـر في بـالي أيضـا سـيدنا عيـسى والمـاء الـذي يتحـوّل إلى دم، وتداخـلَ معـه المَثَـل الـذي يتكلـم عـن الـدم الـذي لا يمكـن بـأي حـال مـن الأحـوال أن يتحـوّل إلى مـاء. وسـمعتُ الآيـة القرآنيـة: «وَجَعَلْنَـا مِـنَ الْـمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَـيٍّ»، ولا أعـرف إن كان الصـوتُ نابعًـا مـن داخـلي أم سـمعتُه بالفعـل حـولي. ووجدتُنـي أردد الآيـة: «وَهُـوَ الَّـذِي خَلَـقَ مِـنَ الْـمَاءِ بَـشَرًا فَجَعَلَـهُ نَسَـبًا وَصِهْـرًا ۗ وَكَانَ رَبُّـكَ قَدِيـرًا»، وأتبعتُهـا بالآيـة: «قَـالَ سَـآوِي إِلَىٰ جَبَـلٍ يَعْصِمُنِـي مِـنَ الْـمَاءِ قَـالَ لَا عَاصِـمَ الْيَـوْمَ مِـنْ أَمْـرِ اللَّـهِ إِلَّا مَـن رَّحِـمَ»، دون أن أسـتطيع أن أسـتوعب مغـزى كل ذلـك، لكننـي فرحـتُ مـن الداخـل، لأننـي أحسسـتُ أن التقـاء كل هـذه الأشـياء يقـول لي بأننـي عـلى الطريـق وأننـي بـدأتُ في تجميـع أشـتاتي وأن كل ذلـك الشـتات والضيـاع والغـرق مـا هـو إلا صفحـة تنطـوي الآن أمـام عينـي، ولا مشـكلة في أن تنطـوي بهـذا المشـهد التمثيـلي:

وقفـتْ أياديهـم بكـوب الشـاي فوقـي بالضبـط، وتركّـزتْ نظـراتُ عيونهـم عـلى الكـوب، وبـدأتْ تنتقـل بالتدريـج إلى أن التقـتْ بنظـرة عينيّ. توقَّعـتُ أن ينفـرجَ المشـهد التمثيـلي بـأن ينكـسرَ جمـودُ نظرتهـم وتقشـعرَّ أجسـامُهم وترتجـفَ قلوبُهـم عندمـا التقـتْ نظراتُنـا. ولكـن نظراتهـم ظلـت كـما هـي، فبعـد أن تسـلَّطتْ عـليّ لمـدة دقيقـة تقريبًـا، بـدأتْ في الانتقـال تدريجيًّـا إلى الكـوب، ثـم التقـتْ نظراتهـم وبـدأتْ في الـكلام، فيبـدو أنهـم كانـوا يختـارون أو ينتخبـون مـن سـيبدأ في ارتشـاف قطـرات مـن كـوب الشـاي. قـال أخـي الأكـبر مـن بـين الظاهريـن في المشـهد:

- ابني صار رجلًا. وأنا الذي سأبدأ برشفتينِ. هذا حقّي الشرعي.

وبالرغـم مـن أننـي لم أجـد رابطًـا بـين كلامـه في حـد ذاتـه، ولا بـين كلامـه بوجـه عـام وارتشـاف قطـرات الشـاي، ولا بـين الموقـف الأكـبر والنـزاع

حـول كـوب الشـاي، وجدتُهـم يهـزون رؤوسـهم ويعلنـون موافقتَهـم باقتنـاعٍ شـديدٍ، وكأنهـم يقفـون وقفـةً تاريخيَّـةً ويرفعـون مـن شـأن المصلحـة العامة عـلى مصالحهـم الشـخصية. ومـا إن ارتشـفَ رشـفتين، قـال أخـي الـذي يليه:

- بنتي صارتْ في سِنِّ الزواج. أظن أن لي الحق في ثلاث رشفات.

دمعتْ عينا أخي الذي يليه، وقال في تأثُّرٍ شديدٍ:

- لا يـا أخـي. الحـقُّ أحـقُّ أن يُتَّبَـعَ. لـك أربـع رشـفات كاملـة. سَـتْرُ البنـتِ واجـبٌ ونحـن أهـل الأصـول والواجـب.

صرخ أخي الرابع عندما ارتشف أخي الثاني أول رشفة، قائلا:

- لا، هذا عبثٌ. رشفتُكَ بعشرِ رشفاتٍ. لا تطمع.

نظـر أخـي الثـاني إلى الكـوب وظهـرتْ عليـه علامـات تأثُّـرٍ واضحـة، وقـال:

- أنا آسف. جاوزتُ البحرَ. أنا آسف مرة أخرى.

ونظر إليّ نظرة طويلة، ثم أكمل كلامه:

- ولكـن رشـفتي بسـبع رشـفات فقـط. هـذا هـو الـذي أخذنـاه مـن المـدارس!! مـن الـذي علّمـك الحسـابَ؟

قال أخي الرابع، وهو يشير إلى السور بجانبي:

- هذا الجدار يريد أن ينقضَّ.

فقال أخي الأول:

- أنا سأبنيه، ولكن علينا أن نتفق على تقسيم الكنز الذي تحته أولا.

قال الباقون في نَفَسٍ واحد:

- لا مشـكلة. لـن نختلـف عـلى طريقـة التقسـيم. هـو كنـزٌ عـلى أي حـال. والكنـز كانـزٌ ومُكْنِـزٌ

فضحكَ أخي الثالث وقال:

- وبينهما طازج.

صمتـوا فجـأة بعـد تلـك الضحكـة وعـادت نظراتهـم إلى كـوب الشـاي

الـذي وضعـه أخـي الثـاني عـلى طـوف السـور. وقـال أخـي الثالـث في جديـة تامـة:

- هـل يجـوز أن نـشرب مـن الشـاي الموضـوع عـلى السـور الآن بعـد أن عرفنـا بـأن هنـاك كنـزًا تحتـه؟

بدتْ على أخي الرابع علامات تأمل واستغراق في التفكير، وقال:

- هنـاك قـولان: القـول الأول هـو الإباحـة، بدليـل أنكـما (وأشـار إلى أخـي الأول وأخـي الثـاني) شربتـما منـه منـذ قليـل. أمـا القـول الثـاني فيجيـز الـشرب ولكـن بـشروط، وهـي أن نسـتخرج الكنـز أولا، ثـم نبيـع جـزءًا منـه قبـل أن نقتسـمه، ونشـتري شـايًا وسُـكَّرًا مـن ثمنـه، ولا حاجـة لنـا لأن نشـتري النعنـاع، فلقـد اقتلعـتُ منـذ قليـل كل النعنـاع الـذي في الأرض وتركتُـه ليجـفّ. ويمكننـا أن نضـع منـه عـلى الشـاي أو لا نضـع، حسـب مـا سيسـفر عنـه الاسـتفتاء الـذي سـنجريه عـلى المـلأ (وأشـار إلى داخـل البيـت القديـم).

سـمعتُ صـوت تصفيقـاتِ استحسـانٍ، ولكنهـا ليسـتْ مثـل تلـك التصفيقـات التـي تصـدر مـن المشـاهدين في المـسرح مثـلا، وإنمـا كانـت تصفيقـات شـخصٍ في مـكان خـاص يـرى أمامـه شـخصًا يُحْبِـكُ أمامـه كلامًـا يبـدو في إظهـارِه أو ظاهـرِه عـلى أنـه صـادق، والشـخص الجالـس يعـرف أنـه يمثّـل أو يكـذب أمامـه وعليـه، فيصفـق لـه بـأن يثبِّـتَ وَضْـعَ أحـدِ كفَّيـه وينـزل عليـه بالكـفِّ الآخـر عـدة مـرات متتاليـة، ولكـن يوجـد فاصـل زمنـي بـين كل نزلـة وأخـرى، ثـم يقـول في نهايـة التصفيـق:

- أحسنتَ. برافو، برافو.

ولكننـي لم أسـمع كلمـة «أحسـنت» ولا كلمـة «برافـو». سـمعتُ فقـط صـوتيّ أخـي الثالـث وأخـي الرابـع وهـما يقـولان معًـا:

- هيا نشرب الشاي قبل أن يبرد.

أمسـكا بكـوب الشـاي مـن عـلى السّـور، وتناوبـا الرشـف منـه في بـطء

وتلـذُّذٍ. وأحسسـتُ بقلبـي ينقبـض، وكأن أحـدًا يشـفط قطـراتٍ مـن دمـي، فلقـد أحسسـتُ بحركـة غـير عاديـة في أحـد عروقـي. قـال أخـي الأول:

- لا ترتشفا التُّفْل، فأنا أحبُّه.

ردّ عليه أخي الثالث:

- هل التاء بالضم أم الفتح أم الكسر؟

قال أخي الرابع:

- لـن نضيّـع وقتنـا في هـذه القضايـا الخلافيـة، واختصـارًا أقـول إن كل الحـالات تجـوز. القضيـة المطروحـة أمامنـا الآن هـي: هـل يجـوز أن يأخـذ التفـل أم لا؟

قال أخي الثاني:

- يجوز طبعًا. هو أكبرُنا، و»كلام أخيك الكبير يصير يا حسانين».

أنـزل أخـي الرابـع نظرتـه إلى طـرف الدكـة في اسـتكانة وتسـليم، ثـم رفعهـا بالتدريـج إلى مسـتوى نظـر أخـي الثـاني وهـزّ رأسـه كأنـه يسـتفسر منـه عـن شيء. ابتسـم أخـي الثـاني ابتسـامة واسـعة وقـال:

- لا شيء. كل ما أحتاجه هو أن تستبقيا لي الرشفة الأخيرة.

قال أخي الرابع:

- هـذا ظلـمٌ بـيِّنٌ. الحـقُّ أحـقُّ أن يُتَّبَـع. وجُحا أولى بلحـمِ ثـورِه. شـظايا الكـوب سـتكون مـن نصيـب أخـي (وأشـار إليّ). الظلـم ظلـمات يـوم القيامـة وأنـا عـلى بـاب اللـه.

صمتـوا جميعـا بعـد أن ابتلـع أخـي الأول كلَّ التفـل المتبقّـي في كـوب الشـاي. وأمسـكوا جميعـا بالكـوب، وحرّكـوا أياديهـم الممسـكة بهـذا الكـوب لأعـلى ولأسـفل عـدة مـرات وهـم يقولـون كأنهـم يلعبـون إحـدى الألعـاب القديمـة:

- كُلُوا بامية.

وانفتحـتْ بطـونُ أياديهـم عـلى أكـواب صغـيرة كأن كـوبي تشـكّلَ فيهـا،

وكل كـوب عليـه صـورتي. تهللـتْ وجوههـم بالفرحـة، فوضعـوا الأكـواب عـلى طـرف الدكـة ورصُّوهـا بجانـب بعضهـا البعـض. ثـم تراجعـوا للـوراء إلى جـذع الشـجرة وأخـذوا يصفقـون ويتبادلـون السـلام فيـما بينهـم. أعطـوا لي ظهورهـم ويبـدو أنهـم كانـوا يتشـاورن في شيء مـا، ولكننـي لم أسـمع أصواتهـم. عـادوا إليّ. أمسـك كل منهـم بكـوب وضـمَّ عليـه يـده بشـدة. يبـدو أنهـم كانـوا يريـدون للأكـواب أن تنكـسر بـين أياديهـم. وعندمـا لم تنكـسر، ظهـرت عليهـم علامـات حـزن واضحـة، فرصُّـوا الأكـواب بجانـب بعضهـا البعـض عـلى طـرف الدكـة مـن جديـد وعـادوا إلى جـذع الشـجرة. لم يطـلْ وقوفهـم هـذه المـرة، فعـادوا بسرعـة إلى الأكـواب، ولكنهـم بـدؤوا في التشـاجر، فقـال كل منهـم إنـه لـه كـوب معـيّن ولا يمكنـه أن يأخـذ أي كـوب عشـوائيًّا هكـذا. وهنـا اقـترح أخـي الأكـبر:

- لا شـأن لنـا بالأصابـع التـي ليسـت مثـل بعضهـا البعـض، لكـن أيادينـا مثـل بعضهـا. فلنضـع أيادينـا بجانـب بعضهـا البعـض كـما لـو كانـت صينيـة كبـيرة، ثـم نـرص الأكـواب عليهـا، وهنـا تصـير كل الأكـواب أكـواب الجميـع. وفي هـذه الحالـة يأخـذ كل منّـا كوبًـا سـيكون كوبـه.

استحسنتْ حركاتُ رؤوسِهم هذا الاقتراحَ، وقال أخي الرابع:

- حسـنًا. هـذا اتفـاق مُـرْضٍ للجميـع. ولكـن علينـا أن نسـتفتي عـلى المـكان الـذي سـنضع عليـه أياديـنا بجانـب بعضهـا البعـض: هـل عـلى طـرف الدكـة مـكان الأكـواب؟ أم عـلى السـور الـذي كان عليـه الكـوب مـن قبـل؟ أم عـلى باطـن هـذا الـذي يرقـد عـلى الدكـة ودعـا إلى الثـورة؟

نظـر إليهـم أخـي الثالـث وبـدأ في التحـرك بجديـة بعيـدًا عنهـم نحـو مدخـل البيـت الجديـد، فسـأله أخـي الأكـبر:

- إلى أين أنت ذاهب؟

ردَّ عليه وعلامات الغضب بادية على وجهه:

- ذاهب إلى ذلك الذي دعا إلى الثورة فأضرَّ بجهينة كلَّ الضرر.

أوقفه أخي الأول بأن أمسكه من يده وقال له:

- إلى أيـن أن ذاهـب يـا عبيـط؟ هـا هـو هنـا عـلى الدكـة. أمـك هـي التـي كانـت هنـاك.

بدت علامات خجل على وجه أخي الثالث وقال:

- صحيح، إلى أين أنا ذاهب؟ ها هو الذي أضرّ بنا كل الضرر.

قال أخي الرابع:

- لا تقلقـوا. عنـد جهينـة الخـبر اليقـين عـلى أيـة حـال. جهينـة ولّادة يـا أولاد.

صفق له الباقون وقالوا:

- يبدو أنك كبرتَ يا ولد. لا بدَّ أن تدخل الآن في طقوس العبور.

أردتُ أن أصرخ فيهم وأقول لهم:

- ابتعـدوا عـن طقـوس العبـور. لا تفسـدوا الأمـل. طقـوس عبـوري التـي كانـت لا يمكـن العبـث بهـا الآن. احترمـوا حرمـة اللحظـة يـا أغبيـاء!

ولكننـي لم أسـتطع أن أقـول شـيئًا، ويبـدو أنـه لا حُرمـة لـراوٍ في روايتـه ولا في أرضـه، مـع أننـي عندمـا كنـتُ راويـا في «طقـوس العبـور» كنـتُ قادمًا إلى هنـا، إلى جهينـة، عـلى أسـاس أنهـا نقطـة البدايـة والامتـداد والجـذور والأصـول. وهـا أنـا هنـا بعـد فاصـل يبـدو أنـه طويـل.

قال أخي الرابع وعلى وجهه ابتسامة واسعة وعلامات استبشار:

- عَبِّرُوني يا إخوتي. كيف سيكون عبوري؟

قال أخي الأول والباقون ينصتون له:

- الأصـول أصـول. والعبـور يتشـكَّل حسـب الموقـف الـذي نحـن فيـه سـاعة أداء طقـوس العبـور. مـا الموقـف الـذي نحـن فيـه الآن؟

قال أخي الثاني:

- أكواب الشاي التي عليها صور ذلك الذي أضرَّ بالنعناع.

قـال لـه أخـي الثـاني، ويبـدو كـما لـو كان يوشوشـه مـع أن صوتـه

مرتفـع كـما هـو:

- يا غبي، هذا هو الذي اقتلع النعناع.

وأشـار إلى أخـي الرابـع. فصمـت أخـي الثـاني وبـدت عليـه علامـات خجـل، وقـال:

- أكـواب الشـاي التـي عليهـا صـور ذلـك الراقـد عـلى الدكـة وأضرّر بجهينـة كلَّ الـضرر.

هزَّ أخي الأول رأسه استحسانًا لقول أخي الثاني وسأل أخي الثالث:

- ما الموقف الذي نحن فيه الآن من وجهة نظرك يا أخي؟

قال أخي الثالث بعد تفكير قصير:

- الشاي الذي سنشربه بعد أن نبيع جزءًا من الكنز.

هـزَّ أخـي الأول رأسَـه لـكلام أخـي الثالـث. ونظـر إلى أخـي الرابـع وسـأله:

- بعيدًا عن الدخول في تفاصيل، ما رأيك؟

قال أخي الرابع:

- مـن دون تفاصيـل تُذكَـر، الـذي شرب أكـبر رشـفات مـن الشـاي هـو الـذي يبـدأ؟

ردّ عليه أخي الأول:

- أحسنتَ. نبدأ كل شيء من جديد. هيا بنا نبدأ.

وتحركـوا نحـو جـذع الشـجرة التـي بـدأتُ أسـمع حركـةَ العصافـيرِ والطيـورِ وأصواتَهـا مـن عليهـا. أداروا ظهورهـم نحـوي وأخـذوا يتشـاورون. ورأيـتُ أطـراف أكـواع أياديهـم تتحـرك وسـمعتهم يقولـون:

- كُلُوا بامية.

واسـتداروا نحـوي يتقدمهـم أخـي الأول. أمسـك كل منهـم بكـوب مـن الأكـواب، وقـرّب فوهتـه نحـو فمـه، وقـال أخـي الأول وكأن الكـوب مكـبّر صـوت أمـام فمـه:

- في ظل هذه الظروف العصيبة التي تمرُّ بها جهينة، اتضح لنا الخبر اليقين، قررنا نحن الماثلون في جهينة أبًّا عن جدٍّ ولم نغادرها ليوم واحد أن نفوّض الأخ الرابع ليبدأ، تقديرًا لعبوره وطقوسه.

صفّقوا جميعًا، بمن فيهم أخي الأول. وتقدموا بحركات بطيئة نحو أخي الرابع، ومدُّوا له الأكواب كلها، قائلين:

- تخيّر منها ما تبدأ به.

أمعن أخي الرابعُ النظرَ في الأكواب وقال:

- قبل أن نبدأ لا بدَّ من أن نغسل هذه الأكواب كلها بماء طاهر، فنحن لا نعرف من أين أتتْ، وهذا الكاهن (وأشار إليّ) ربما قرأ على الكوب الأصليّ شيئًا دون أن ندري.

استحسنوا رأيه وأمسك كل منهم كوبًا وذهب به إلى حنفية المياه بجانب السور الآخر وأخذوا يتمايلون يمينًا ويسارًا وهم يقولون:

- بسم الله الرحمن الرحيم. رقيناك من عين الكُهّان ومن عين الشيطان والجان، رقيناك واستطهرناك وأعليناك علوًّا كبيرًا. نو باخ، نو باخ، صاخ، طاخ، راخ. هيلا هوب، هيلا هوب. طُبّ ساكتًا يا ابن الذي لا يُسمّى. شاي شاي شاي، شاي، كوب، كوب، كوب، كوب. هُبّ، هُبّ، هُبّ.

وفجأة سمعتُ أصواتَ أشياءٍ تخبط بعضها البعض، كأن هناك عاصفة هبّت بالفعل، ووجدتُ أمي تحاول أن تُسرِع نحونا وهي تتحامل على قدمها التي بدا عليها أنها مكسورة أو مصابة. هممتُ أن أنهض لأسرع إلى أمي وأجعلها تتكئ عليّ، لكنهم جميعًا حوّلوا قَعَرَ أكواب الشاء نحوي كأنها مسدسات، ووضعوا جميعهم أصابعهم على أفواههم بطريقة رأسية، ليأمروني بالسكون وعدم الحركة. والغريب أنني وجدتُ نفسي أستكين لأوامرهم. وقال أخي الثاني:

- لا تقلقوا منها. ستنصرف بعد قليل. هل هي عادتُها أم ستشتريها

مـن سـوق الخميـس؟ تعرفـون أنهـا تهـبُّ وتثـور ثـم تهـدأ وتعـود إلى...

توقّـفَ عـن الـكلام عندمـا نظـر إليـه أخـي الأول وأشـار إليّ. فقـال أخـي الثـاني دون أن يحـدد مَـن الـذي يتكلـم عنـه:

- هو دائما يتمسّك بهذه الأشياء التافهة. الحيّ أبقى من...

وتوقـف عندمـا نظـر إليـه أخـي الثـاني أيضـا، وأشـار بيـده إشـارة حـاول أن يخفيهـا وراء ظهـره، ولكننـي فهمـتُ منهـا أنـه يريـد لـشيء أن ينـصرف أو يطلـب مـن أخـي الثـاني أن يبتعـد عـن شيء مـا. وفجـأة صرخـتْ أمّـي صرخـة مدوّيـة رددتْ أصداءَهـا الطيـورُ التـي عـلى الشـجرة، فقـوّى كل منهـم قبضتـه عـلى الكـوب الزجاجـي الـذي بيـده، وقـذف اثنـان منهـم كوبـين نحـو الأرض التـي تسـير عليهـا أمـي، وقـذف الاثنـان الآخـران الكوبـين المتبقيـين نحـو الأرض التـي بجانـب الدكـة، فـدوّى صـوتُ الانكسـار في المكانـين، وتعـالى صراخ الطيـور التـي عـلى الشـجرة.

وقفـتْ أمّـي حائـرة أمـام شـظايا الزجـاج، ولم تعـرف مـاذا تفعـل، كانـت عيناهـا تتبـادلان النظـرات مـا بـين الشـظايا وقدميْهـا، وكأنهـا تسـأل قدميهـا عـما يمكنهـما أن يفعـلا. نظـرتْ يمينًـا ويسـارًا، كأنهـا تبحـث عـن مَخْـرَج، ولكنهـا رأت الشـظايا تمـلأ كل الطريـق أمامهـا مـا بـين المنـضرة القديمـة وسـور الحـمّام القديـم مـن الجهـة الأخـرى، ولا أعـرف كيـف تكاثـر الزجـاج لتمـلأ شـظاياه كل هـذا المـكان! تحاملـتُ عـلى نفـسي ونهضـتُ دون أن أبـالي بنظـرات إخـوتي المهـددة، فكيـف أتـرك أمّـي في وضـع كهـذا؟ أشـار أخـي الرابـع نحـو شـظايا الزجـاج التـي بجانـب الدكّـة، فبـدأت الشـظايا في التحـرُّك، وأدركـتُ أن شـيئًا خطـيرًا سـيحدث، فقفـزتُ باتجـاه أمّـي، ولكـن شـظية تضخمـت والتصقـت بقدمـي ووجـدتُ الدمـاء تسـيل مـن قدمـي كـما وجـدتُ أمـي تختفـي وهـي تنـوح نواحًـا هادئًـا وعميقًـا في نفـس الوقـت يتباطـأ صوتُـه بالتدريـج إلى أن يصمـت تمامًـا. وقـال أخـي الثـاني:

- ما الذي تفعلونه يا جماعة؟ ما هكذا تكون الأصول!

ونظـر إلى أخـي الرابـع نظـرة طويلـة، فأشـار الثـاني بيـده للشـظايا، فعـادت إلى أماكنهـا وإلى حجمهـا الطبيعـي. وأشـار إلى القطعـة التـي في قدمـي، فوجـدتُ القطعـة تدفعنـي للـوراء إلى أن رقـدتُ عـلى الدكـة مـن جديـد، وكأن طاقتـي نفـدتْ تمامًـا. أشرتُ إلى الـدم الـذي يسـيل مـن قدمـي، فقـال أخـي الثالـث:

- شـوفوا الطمـع يـا أولاد! ألا يحمـد ربـه عـلى أنـه عـاد إلى الدكّـة. عشـنا وشـفنا. وربمـا يطلـب بعـد قليـل أن نحملـه ونسـير بـه في الأرض!! اللهـم أكفنـا شر الطمـع والطمّاعـين.

قال أخي الأول:

- سبحان الله. لله في خلقه شؤون. ولكن ألا ترى أنها فكرة جيدة؟

ونظر إلى أخي الثالث، فقال أخي الثاني:

- هل تفكّرون فيما أفكّر فيه؟

ابتسموا جميعًا وقال الرابع:

- أنـا الـذي أتكلّـم. الطقـوس طقـوسي اليـوم، والعبـور عبـوري. والطقوس طقـوسُ جـذورٍ هـذه المـرّة. أحفـظُ كلَّ شيء عـلى قلـب رجـل واحـدٍ. نحمله

رددوا وراءه:

- نحمله

قال الرابع:

- ونسير به.

رددوا وراءه:

- ونسير به.

قـال وهـو يضـع طـرف إصبعـه عـلى جانـب رأسـه، كأنـه يلفـت انتباههـم إلى شيء ذكي أو قـول منطقـي سـيفعله أو يقولـه:

- ولكن بدلا من أن نسير به في كل الأرض، نأخذه إلى الغيط الغربي

رددوا وراءه:

- نأخذه إلى الغيط الغربي

قال مبتسمًا:

- وكلكم تعرفون الذي تَهِفُّ نفسُه على الذهاب إلى الغيط الغربي.

رددوا:

- تهفُّ نفسُه. كلنا نعرف.

ردد الأربعة كلهم:

- كلنا نعرف، كلنا نعرف، كلنا نعرف.

وأنا لا أعرف. كنتُ أسمع في صغري أن ثلاثة من جدودي وفي أوقات مختلفة طلب كل منهم قبل أن يظهر عليه أي شيء يدل على المرض أو الموت أن يذهب إلى الغيط الغربي. وبعدما عاد كل منهم مات على الفور، وكأنَّ نداءَ أرضِ الغيطِ الغربيِّ طقسٌ من طقوس الفراق والموت، وكأنَّ الذي يقضي حياته وسط الأرض ويرتبط بها لا بدَّ أن يودّعها قبل أن ينتقَل إلى العالم الآخر.

قال الرابع:

- هيّا بنا.

ضحك الثلاثة ضحكات طويلة بدتْ حقيقيَّةً لدرجة أن كلًّا منهم اتكأ على جزء من السور كي لا يقع من كثرة الضحك. وقال الأول:

- لا مشكلة. البداية لا تخلو من غَشَمٍ في أحيان كثيرة.

ونظر إلى أخي الرابع وقال:

- يا عبيط، هذه طقوس عبورك. ومجرد الكلام في الشيء يعني القيام بهذا الشيء. سأشرح لك الموضوع كي تنقله لأولادك فيما بعد: عندما تكلمنا عن أخذه (وأشار إليّ) إلى الغيط الغربي، فهذا يعني أننا أخذناه بالفعل.

سأله أخي الرابع متلهّفًا:

- هل سيذهب الآن؟

قال أخي الثاني:

- والله الموضوع محيّر. وأنت جديد (وأشار برأسه إلى أخي الرابع) ولا يمكننا أن نستفتيك. في الطقوس السابقة، كان الكلام عن شيء خاص بالشخص العابر. وفي المرات السابقة كان الشخص الذي سيذهب إلى هناك (وأشار بيده نحو الغرب ولا أعرف إن كان يشير إلى أرض الغيط الغربي أم إلى المقابر التي في غرب البلدة) هو الذي يذهب إلى الغيط الغربي بنفسه...

قاطعه أخي الأول، قائلا:

- لا تقلق يا أخي. فالخبر غدًا بلا ثمن، ومازالتْ جهينة عندها الخبر اليقين على أية حال. هذا تاريخ ولا يمكن لأحد أن يغيّرَه. علينا الآن أن نبدأ.

ونظر إلى أخي الرابع، ثم إلى شظايا الزجاج، وقال له:

- هيّا ابدأ، ولكنْ بعيدًا عن أمك هذه المرة. خلِّ الذهاب يمرّ بأمان وسلام.

فقال أخي الرابع:

- وعليكم السلام. لا بأس. ليستْ مشكلة على الإطلاق. منذ متى ونحن يوقفنا شيء تافه هكذا؟!! جِراب جهينة لا يخلو من الحِيَل.

وفرك إصبعين من أصابع يده الشمال باتجاه الشظايا، فالتحمت كلها من جديد ولكن مع زيادة عدة الأكواب، ووجدتُ أربعة أكواب في يد كل منهم، دون أن أعرف سرّ الرقم أربعة، ففي المرة الأولى تحول الكوب إلى أربعة أكواب، وها هو كل كوب من الأكواب الأربعة يتحول إلى أربعة أكواب، كما أن الشظايا التي كانت تحجز أمي عنّي ظلَّتْ أو عادتْ كما هي، وكأن كل كوب من الكوبين اللذين كانا بجانب الدكة تحول إلى ثماني أكواب. أعرف أن الرقم سبعة له مكانة خاصة، سواء أكان بمفرده أم بمضاعفاته، لكن الرقم أربعة جديد في الخدمة على ما

يبدو، ولا أعرف إن كان لذلك علاقة بعبور أخي الرابع أم لا.

وضع كل منهم أكوابه على السور بعيدًا عنّي، وقوّى كل منهم قبضته على كوبٍ وقذفَ به نحو الأرضية الاسمنتية بجانب الدكة، ومع صوت الشظايا تصاعدت أصوات الطيور التي على الشجرة، ولكن صوتها أخذ صوتَ نواحِ أمّي. ومع قذف الكوب الثاني، تصاعد صوت النواح، إلى أن علا تمامًا مع قذف الكوب الرابع، وكأن العصافير والطيور تمسك بمكبّرات صوت وتنوح فيها.

***

لماذا غزوتَ يا أبا زيد؟!! لماذا تفتّحتْ أزهارُ الياسمين واللوتس؟!! أشمُّ عقدَ فُلٍّ وعقدَ ياسمين وعقد لوتس في خيالي؟! هل هذه العقود حقيقة؟! هل أنا مستيقظ حقًّا أم أنني في كابوس لا أعرف كيف أخرج منه؟ سأغمض عينيّ في هذا الكابوس، فربما أختفي أو يختفي هو، وربما أنام داخله، ولن يتبقى أمام هذا الكابوسِ أحدٌ مستيقظًا حتى يتخايل عليه هكذا!! لم تختفِ الأصوات مع أنني أغمضتُ عينيّ. نعم أنا وإخوتي وأخواتي عددنا أحد عشر أخا وأختا، ولكن أبي مات منذ سنوات، وتلك البئر التي عند المقابر جفَّ ماؤها منذ سنين، ولا يعبر بها أحد. فتحتُ عينيّ، كان الوضع كله حقيقيًّا، ووجدتُ نفسي ممدَّدًا على الدكّة كما أنا، متيقّظ وبعض إخوتي كما هم واقفون حولي أو فوقي، ولكنني لم أجد أخي الخامس الذي رأيتُه من قبل بينهم...

سكن الهواءُ فجأة، وكذلك العصافير والزارزير قبل الغروب عندما علت أصواتُ شظايا الزجاج على الأرض كأنها تريد أن تطغى على صوت العصافير والطيور، وكأن الطيور والعصافير تكتم أنفاسها لتشاهد ما لم تره من قبل. حتى الهدهد رأيتُه على غصن الشجرة يقف مشدوهًا كأنَّ تاريخه لا يمدُّه بتجربة قد تقلِّلُ الاندهاشَ. لم يكن لديّ وقت للاستغراب من وجود الهدهد فوق الشجرة.

أخـذ صديقـي الغـرابُ وضـعَ الاسـتعدادِ، وقبـل أن يصـل بمنقـاره إلى عـين أحدهـم كأنـه سـيُعيد تمثيـلَ مشـهدٍ ختامـي مـن فيلـم «آلام المسـيح»، هـوى أحدهـم بالفـأس عليـه، فانقسـم نصفـين، وظـل جناحـاه يرفرفـان انتفاضًـا أو ثـورةً بعنـفٍ، كأنـه يريـد أن يفجِّـر نفسـه لتختفـي صـورة قاتمـة مـن رأسـه الصغـير الـذي انفصـل عنـه.

سـبحان اللـه! حتـى الغـراب يرفـض الضربـة، فهـا هـما نصفـاه يتحـولان إلى غرابـينِ، وكل غـراب منهـما صـار أشـدَّ شراسـةً واسـتماتةً ودفاعًـا عـن نفسـه وعنـي، أو هكـذا أظـنُّ، فتجـاربي السـابقة، التـي عايشـتُها بنفـسي في «طقـوس العبـور» وفي «عـلى أعتـاب العبـور» وعايشَـها غـيري قبـلي حتـى بـدء الخليقـة، تقـول بـأن هـذا الغـراب لـه أفضـالٌ عـليّ، ولا بـدَّ أنـه يدافـع عنـي هنـا...

وضـعَ كل إخـوتي أياديهـم عـلى أعينهـم كي لا ينقرهـا غـراب أو هدهـد. يبـدو أن الغرابـين تذكّـرا شـيئًا، فلقـد عـادا إلى الشـجرة، وأخـذا ينظـران إلى بعضهـما بعضًـا، وانتقـل أحدُهـما ليحـطَّ عـلى السـور وظـلَّ الآخـرُ فـوق الشـجرة ليراقـبَ الموقـفَ في الغالـب.

دخـل إخـوتي في شِـجار لا أعـرف سـببه، فلقـد أحسسـتُ أن رأسي مشوَّشَـةٌ قليـلا، ولا أدري إن كان التشـويش ناتجًـا عـن الصدمـة مـن هـول الموقـف الـذي لم أكـن أتوقعـه، أم أننـي مريـض أو تلقيـتُ صدمـة عـلى رأسي مـن قبـل!

كنـتُ أظـنُّ أن أفـلام الرعـب التـي يظهـر العنـف فيهـا بشـكل غـير مُـبَرَّرٍ أحيانـا هـي محـض خيـال يصـوّرُ طاقـةَ العنـفِ الكامنـةِ داخـل بعـض النـاس ولا يسـتطيع هـؤلاء النـاس التنفيـس عنهـا بطـرق إيجابيـة بنَّـاءة، فيتجهـون إلى إخراجهـا بهـذا الشـكل الفـجِّ في بعـض الأفـلام الرديئـة، مـع أن هنـاك بعـض أفـلام الرعـب يكـون العنـف فيهـا صـدًى لجانـب خفـي وواقعـي مـن جوانـب حيـاة الإنسـان، أو بمعنـى أدق حيـاة البـشر الذيـن

كانوا من قبل، وكأنهم يعاودون الظهور ليقولوا إنهم مازالوا موجودين في حياتنا.

ولكنني لستُ في فيلم، فكل ما حولي واقعي تماما: تلك الدكة التي كنتُ أضطجع عليها، وتلك شجرة النبق، وذلك موتور المياه، وذلك بيتنا، أو بيتي أنا وبعض إخوتي الذين كانوا غائبين عن المشهد. لكنني أحسستُ بأنني قديم في الزمن، لا، ليس هذا التعبير دقيقًا، أحسستُ في البداية بأن ذاكرتي في سديم، هل «سديم» هي الكلمة المضبوطة هنا؟ بمعنى أنني أحس بأن هناك ستارة على ذاكرتي تفصل بين مساحتين أو مشهدين، وكأنني واقع من منطقة الذوبان بين لقطة وأخرى في فيلم، دون أن أتذكر اللقطة السابقة ودون أن أعرف شيئا عن اللقطة التالية، هو برزخ ضبابي، وفي الوقت ذاته ليس برزخ الموت أو ما بعد الموت، فاستبشرتُ برغم كل ذلك الكابوس، فلا أنا في فيلم رعب ولا أنا ميّت، هل من الممكن أن يكون إخوتي يمثّلون أمامي أو عليّ مشهدًا كأنني في برنامج كاميرا خفية وهم يعرفون أنني متابعٌ جيِّدٌ لأفلامِ الرعب والأفلام العربية والأجنبية بوجه عام، ولذلك يحاولون أن يرفّهوا عنّي بعد ذلك المرض الذي أظنُّه كان يصيبني؟!

***

كان مَنْ يُفترضُ أنَّهم إخوتي مازالوا يتشاجرون ويحتلون الطريق نحو داخل البيت القديم حيث ترقد أمي، بالرغم من أنني بدأتُ أشكُّ في كل شيء. وكانت شظايا أكواب الشاي متناثرةً على الأرض بجانب الدكَّة نحو المَخْرَج خارج السور. إن خطوتُ للذهاب نحو أمي، ربما ينتبهون إلى انخراطهم في الشجار وينصبون أعينهم وأسلحتهم حارسًا أبديًّا يخطط موضعَ جسمي على الكنبة إلى أن يقتسموني. وإذا قفزتُ نحو البوّابة الموصلة إلى خارج السور سينفر الدم من قدمي وربما لا أستطيع الفرار. لم يتبقَ إلا أن أقفز من فوق السور، وفي ذلك احتمال

أن تنكسر رجلي أو تنجزع، وقد لا أستطيع الفرار أيضا. ها أنا أذكر أن في خارج السور مباشرة كومة حطبٍ بالقرب من المنطقة التي نشعل فيها النيران في الخشب والفحم....

كنتُ أنظر إليهم ولا أستطيع أن أستوعب منظرهم ولا حركات أعينهم ولا اللغة التي لا أعرف حروفها التي يتبادلونها بالإشارات والنظرات وحركات جسدٍ تنمُّ عن فصاحة كأنها بلغة أجنبية لا أتقنها ولا أعرف حتى حروفها أو اسمها.

عادوا جميعهم إلى جوار الدكَّة، كلٌّ في موضعه السابق، والغريب أن أخي الخامس ظهر بينهم كأنه لم يكن مختفيًا طوال ذلك المشهد الكابوسي. وقال أخي الأول:

- لا امتياز لأحدنا على الآخر الآن. لن يكون هناك الأخ الأول والأخ الثاني والأخ الـ... كلنا أخوة ولا يحقُّ لذلك الثائر والأديب والكاهن أن يصنّفنا. كلنا على هذه الأرض منذ أن وُلِدْنَا.

قال أخي الذي كان الثاني:

- وما دمتَ قد ذكرتَ الأرض، ما رأيكم أن نمثِّل مشهدًا من فيلم «الأرض»؟

فبدؤوا جميعا في غناء أغنية فيلم «الأرض»، وتحرّكوا نحوي في حركات جادة وصامتة ومحسوبة وأمسكوا بي ببطء وهمُّوا أن يرفعوني، ولكن أخي الخامس قال:

- ولماذا نتعب أنفسنا؟ إذا كان الموضوع تمثيلًا، فلنتظاهر بأننا نحمله وأننا نرميه على الأرض، ونبدأ المشهد من بداية إلقائنا له على الأرض.

ربّتَ كبيرُهم على كتفه مستحسنًا اقتراحه. ووضعوا أياديهم على جسمي من جديد كأنهم سيحملونني، وبعدها رفعوا أياديهم وكل منهم يرسم ملامح الجهد والتعب على وجهه ويصدر أصواتَ توجُّعٍ، وتحركوا نحو جذع الشجرة، وبدا عليهم وكأنهم يسحبون جسمي على

الأرض ويجرونه كما في مشهد التنكيل الذي في الفيلم، وهم يتغنون:

- «أرضنا العطشانة نرويها بدمانا».

رفع أربعة منهم أياديهم كأنهم انتهوا من المشهد، لكن أخي الذي كان الرابع قال لهم:

- لا يصح أن نتركه هكذا؛ لا بد أن نعيده إلى الدكّة حتى نبدأ.

فنظر إليه كبيرهم نظرة طويلة كأنه يوبّخه، وقال:

- ولكنه هناك على الدكة.

وأشار إليّ. فقال له أخي الرابع:

- أين المصداقية؟ تخيَّلْ أن أحدًا كان يصوّر المشهد، هل سيصدقه المشاهدون؟ لا بد أن نتقن عملنا، أم سيقول علينا ذلك المصوّر إننا منافقون؟

صرخوا جميعا في صوت واحد:

- منافقون، لا. إلا النفاق. ينقص أن يسمِّي ذلك المصوّر المشهد باسم «أرض النفاق»!! عشنا وشفنا، مصوِّرون آخر زمن. فلنتقنْ عملَنا.

وأنزلوا أياديهم عند الموضع الذي من المفترض أنهم أوقفوا جَرَّ جسمي عنده، وأعادوا رسم ملامح الجهد والتعب على وجوههم، دون أن يصدروا أصوات التوجُّع، وعادوا بجسمي الافتراضي في هدوء وخفة إلى الدكة ووضعوه بهدوء فوق جسمي بالضبط، وقالوا:

- ها نحن أتقنّا أعمالنا. ربنا يبارك لنا فيها ويطرح فيها البركة. اللهم آمين.

نظروا إلى بعضهم البعض، كأنهم يتشاورون فيما سيفعلونه في الخطوة التالية. اختفى أحدهم لثواني وجاء بقطعة فحم مطفأة من رماد النار التي نوقدها بجانب البيت للتدفئة أو للتدخين. أعطى قطعة الفحم لأخيه الذي يكبُره مباشرة وأشار بعينه نحوي. وجدتُه يرسم بالفحم خطًّا من أعلى منتصف رأسي مارًّا بأنفي وذقني وصدري حتى أطراف قدمي. بعدها في منتصف البطن تماما، أو بين صدري وبطني،

رسم خطًّا بالعرض. يبدو أن فيلم «آلام المسيح» يتم عرضه بالمقلوب. فبعد الغراب الذي يُفترَض أنه في مشهد أخير يجيء التقسيم الصليبي. وما أن انتهى الذي يُفترض أنه أخي من رسمه حتى وجدتُهم يرمون فوقي حبلًا ويضعون أطرافه أسفل جسمي وينخرطون في التشاجر فيما بينهم.

- هل أنا ابن البطة السوداء؟ كيف تقسِّمه على أربعة أشخاص فقط؟

- نصيبي سآخذه أولا.

- أين العدل؟ هذا ظلمٌ لا يصحُّ بين الإخوة.

- وأمنا الراقدة في فراش مرضها، أنتركها بلا نصيب؟!

قال ذلك وهو يتقمّص شخصية شخص حزين ومنكوب، ولكنه خرج من تقمُّصه بسرعة عندما رآهم يضحكون، وقال:

- أنا آسف. الواحد أمامكم لا يعرف كيف يعيش اللحظة. لم آخذ من قصص ذلك الذي يمثّل أنه مريض وفاقد الوعي (وأشار إليّ) إلا التقمُّص.

أشار كبيرهم بيده له؛ فصمتَ. وتحرّك الكبير نحو السور ووضع أذنه عليه وهو صامت وجاد تمامًا، وبدا عليه أنه لم يسمع شيئًا، فلقد أشار بيده مرة أخرى وهو يبتسم إلى بقيتهم وقال:

- دعنا من التمثيل الآن. الموضوع جاد لا يحتمل أي تمثيل. الميراث شرع الله، وشرع الله واجب النفاذ.

ونطق الذال في كلمة «النفاذ» كاملة بدلا من أن ينطقها «زايًا» وهز رأسه أثناء نطقها ورفع وجهه لأعلى لتبرز عيناه. وقال:

- هيا بنا نبدأ.

وأشار إلى أخي الذي كان الثاني، فقال:

- أنا أبنائي أكثر منك، كيف تأخذ نصيبًا مساويًا لنصيبي؟

- أنـا سـمَّيْتُ ابنـي عـلى اسـمه، وسـآخذ فيـه نصيبـين، نصيـب لي ونصيـب لابنـي الـذي سـيرث الاسـم.

- أنا اشتريتُ له قميصًا عندما دخل المدرسة الإعدادية.

- وأنا ذبحتُ له زوجَ حَمَامٍ عندما جاء بزوجته هنا لأول مرة.

- أنـا قـرأتُ لـه كتابًا، ومـن قـرأ وَرِثَ وِرْثَتَـيْنِ. يـا جماعـة، أنتـم مؤمنـون وموحـدون باللـه، وأوّل آيـة نزلـت عـلى رسـولنا الكريـم آيـة «اقـرأ».

- أنـا أعطـاني شـقته لأتـزوجَ فيهـا عندمـا رحـلَ. والشـقة مـيراث، ومـا دامـتْ لي فنصفـه لي.

وصرخ كبيرهم فجأة طالبًا منهم السكوت، وقال:

- مـا هكـذا تُـورَدُ الإبـلُ، ومـا هكـذا يُـؤْكَلُ الأخُّ. إذا كنّـا نريـد الأصـولَ، فلنكـن عادلـين. الظلـم لا يـدوم.

تعلَّقـتْ نظراتُهـم بـه، فأخـذ ينتقـل بنظـره مـن وجـه إلى آخـر، وشرد بنظـره بعيـدًا، وكأنـه يبعـد عينيـه عـن عيونهـم، وقـال:

- إذا عدنـا إلى البدايـة، مـاذا سـنجد؟ ولا أسـألكم، وإنمـا أسـأل نفـسي. الكبـير كبـير. سـنجد الكـوب. والمنطـق يقـول إن الـذي معـه كـوب يـرث، والـذي ليـس معـه كـوب لا يـرث.

تهللـتْ وجوههـم، مـا عـدا الأخ الـذي كان الخامـس. ولكنـه لم يقـل شـيئًا. فقـط طلـب مـن أحدهـم أن يسـاعده في نقـل دكَّـةٍ مـن أمـام البيـت الجديـد إلى تحـت الشـجرة. وسـأل الرابـعَ عـن مـكان النعنـاع. وبعدهـا دخـل البيـت القديـم وجـاء بكنكـة الشـاي وبعـض الشـاي والسُّـكر والنعناع وأشـعل النـار ووضـع الكنكـة عـلى النـار بعـد أن وضـع فيها الشـاي والسـكر والنعنـاع. وكانـوا جميعـا ينظـرون إلى كل هـذا في صمـت. ومـا أن جلـس الخامـس عـلى الدكـة تحـت الشـجرة حتـى قـال كبيرهـم:

- من معه أكواب يرث إلا واحد.

نظـر الباقـون إلى بعضهـم البعـض، ولكنـه تجاهلهـم وأكمـل كلامـه وهـو

يشير إلى الذي كان الرابع:

- أنتَ أخذتَ حقَّكَ كاملا، ولا تسألني كيف؟ وسأفترض أنك سألتَني وسأجيبك: أنتَ الذي عبرتَ اليومَ يا بطل وأنت الذي تطقَّسْتَ، ولا تنظرْ عيناك إلى ما تمتَّع به إخوتُك. كما أننا عبرنا وتطقّسنا في أيام الرُّخْصِ.

فانسحبَ من أمامهم في هدوء، مع أنني بدأتُ أتذكَّر أنه يمكنه أن يعصف بالجميع في مثل ذلك الموقف. انسحب وجلس على الدكة بجوار أخيه، وبدآ يشربان الشاي في هدوء وصمت وهما ينظران نحونا كأن المنظر لا يستهويهما أو أنه غير موجود أصلا، مثلما يحدث في الأفلام عندما تتسلط الكاميرا على شخصية ما فتظهر الشخصيات الأخرى باهتةً بجوارها، ولكنني لم أعرف إن كانا هما اللذان ابتعدتْ عنهما الكاميرا أم أننا نحن الذين صرنا في الظل.

قال كبيرهم:

- علينا أن نغسل الأكواب من جديد، ثم نضع فيها شايًا كما كان الشاي في الكوب الأول.

ونظر إلى الجالسين على الدكة والشاي بجوارهما. وضعوا جميعا الأكواب على جانب السور وخلطوها ببعضها البعض كي لا يعرف أحدٌ الأكوابَ التي كانت معه في الغالب. قال الثاني:

- هل من الأنسب أن نضع الأكواب فوق المكان الذي فيه الكنز بالضبط أم لا يهم موضعها؟

ردَّ عليه الثالث:

- هل هذا كلام؟ شغِّلْ مُخَّكَ. نضع كل كوب في موضع، ثم نمزج الأكواب مرة أخرى، وساعتها سيتوزّع موضع الكنز على كل الأكواب ولن نضطر لأن ندخل في دوّامةٍ لا طاقة لنا الآنَ بها.

صفّقَ الآخران، ويبدو أن تصفيقهما أخرج الاثنين من الظِّلِّ على

الدكَّـة، فشـجعاهما بتصفيقتـين، ثـم عـادا إلى شُرب الشـاي.

ذهـب الثلاثـة إلى حنفيّـة الميـاه وغسـلوا الأكـواب. وعندمـا رجعـوا إلى جانـب الدكـة بجـواري نظـروا جميعـا إلى الشـاي عـلى الدكـة الأخـرى وابتسـموا، ووضـع كل منهـم كوبًـا عـلى السُّـور، وأمسـكوا بالأكـواب الأخـرى وكسروهـا في المـكان الـذي كـسروا فيـه الكـوب الأول، وتنفسـوا بارتيـاح. وأمسـك كل منهـم بالكـوب الـذي وضعـه عـلى السـور وتحركـوا نحـو الشـاي عـلى الدكـة الأخـرى. قـال كبيرهـم للاثنـين الجالسـين عـلى الدكـة:

- الدكـة لا تسـعُنا نحـن الخمسـة. وليـس مـن الـذوق أن نطلـب منكـما النهـوض لنجلـس عليهـا. الأصـول أصـول، والخـبرُ اليقـين يقـول إننـا سـنطلب منكـما شـايًا ونترككـما عـلى راحتكـما.

وصـبّ كل منهـم لنفسـه كوبًـا مـن الشـاي. واتـكأوا في وقوفهـم عـلى مسـند الدكـة وأخـذوا يرتشـفون الشـاي في صمـت، والآخـران كانـا يرتشـفان الشـاي في صمـت، وظَهْـرُ كل فريـق في ظَهْـرِ الفريـق الآخـر. قـال الأكـبر:

- نشرب الشاي وبعدها نبدأ البدايةَ من أوَّلِها.

فقال الاثنان بجواره:

- على بركة الله.

***

بعد أن شربوا الشاي، نظروا إلى بعضهم البعض، وقال كبيرهم:

- هيا بنا نبدأ.

فقال له الذي يليه:

- كيف نبدأ ونحن ثلاثة؟

ردّ الأخير:

- مـع أن الثالثـة ثابتـة، كـما يؤكّـدُ المَثَـلُ، نحـن في حاجـة إلى هذيـن الاثنـين (مشـيرًا إلى الجالسـينِ عـلى الدكَّـة) حتـى يَحْلِـلَ اللـه عقـدةً مـن أيادينـا.

قال له كبيرهم:

- ينصر دِينَكَ. هكذا اطمأننتُ عليكَ. هيّا بنا نلعب.

وتوجه ثلاثتهم إلى الاثنين الجالسين على الدكة. وضع كبيرهم يديه على كتفيهما، فنظرا إليه نظرة فارغة، كأنهما لا يعرفانه ولا يفهمان سببًا لوضع يديه عليهما. ولكنه عندما سحب يديه من عليهما ومدها أمامهما، وضعا يديهما عليها وكذلك فعل الاثنان الآخران، وهزُّوا الأيادي الموضوعة فوق بعضها البعض لأعلى ولأسفل وقالوا في نَفَسٍ واحدٍ:

- كُلُوا بامية.

وتحرَّكوا جميعا نحوي. فكّرتُ في أنني لو كتبتُ قصة عما يفعلونه لن يصدّقها أحد لأن ذلك الأحد سيظن أنها لا تتفق مع منطق الواقع وتخرق جميع قوانينه. لكنهم تحركوا نحوي ببطء كما في بعض الأفلام التي يتحرك فيها مجموعة من الشخصيات للقيام بمهمة بطولية ما أو بعد إنجاز هذه المهمة، وتقوم الكاميرا بتصويرهم ببطء وشموخ وتحدٍّ. قالوا جميعا بصوت واحد:

- هيلا هوب، هُبّ، هُبّ، هُبّ

وعندما توقفوا، قال الذي كان الرابع:

- ما هكذا تُورَدُ الكلمة. نحن خمسة. لا بد من أن تكون الكلمة خمس كلمات. هيا بنا نبدأ.

قالوا جميعا:

- هُبّ، هُبّ، هُبّ، هُبّ، هُب.

وأضاف بعضهم:

- هُبّ، هو اسمه راوي بن أم راوي

فصرخ الرابع، قائلا:

- لا تذكروا اسم أم راوي. لولا صنائعي لكانت عصفتْ بنا جميعا عندما هبّتْ عاصفتُها في المرة الماضية. والحمد لله أنها فاتت على

خـير. مـن الأفضـل لنـا جميعـا أن نسـترضي هـذه العصافـير والطيـور.

وأشـار إلى الشـجرة. هـزُّوا رؤوسـهم بالموافقـة، ونظـروا جميعـا إلى أعـلى الشـجرة. وقـال الرابـع:

- هُبِّي، لا تهبّي، هُبّي، لا تهبّي، هُبّي، لا تهبّي

وردد الباقون وراءه:

- لا تهبّي، لا تهبّي، لا تهبّي

قال الرابع:

- عُبِّي، لا تَعُبّي، عُبّي، لا تعبّي، عُبّي، لا تعبّي

رددوا وراءه:

- عُبِّي، لا تَعُبّي، عُبّي، لا تعبّي، عُبّي، لا تعبّي

قال الرابع:

- دُبّي، لا تدُبّي، دُبّي، لا تدبّي، دبّي، لا تدبّي

رددوا وراءه:

- دُبّي، دُبّي، لا تدُبّي، دُبّي، دُبّي، لا تدُبّي، دُبّي، دُبّي، لا تدُبّي

قال الرابع:

- خِبِّي، خِبّي، لا تخبّي، خِبّي، خِبّي، لا تخبّي، خِبّي، خِبّي، لا تخبّي

رددوا:

- خِبِّـي، خِبّـي، لا تخبّـي، خِبّـي، خِبّـي، خِبّـي، خِبِّـي. خِبِّـي، خِبّـي، لا تخبّـي، خِبّـي، خِبّـي، خِبّـي، خِبِّـي.

تكوَّنـتِ العاصفـة التـي هاجـت مـن قبـل في الموضـع الـذي كانـت فيـه أمـي، ولكنهـا انتقلـت إلى أغصـان الشـجرة ذاتهـا. وصرخ كبيرهـم مخاطبًـا الرابـع:

- مـا الـذي فعلتَـه يـا عبيـط؟ مـا الـذي فعلتَـه؟ هـل هـذا الـذي اتفقنـا عليـه؟ ألم نتفـق عـلى أن مـن عمـل عمـلا لا بـد أن يتقنـه؟

قال الرابع منفعلا:

- أنتم الذين أفسدتم الخطة؛ لماذا غيَّرتم ترتيب الكلمات؟ ولماذا غيرتم عددَها؟

لم تمهلهم الطيور الاستمرارَ في الشجار، فلقد دوّى صوت اصطفاف أغصان الشجرة وصوت اصطكاك أجنحة الطيور، وكأن هذه الطيور لها أجنحة هائلة وتهمُّ بأن تكتسح كلَّ ما ومَن أمامها. وسمعتُ صوتًا جماعيًّا هادرًا يصدر من أغصان الشجرة:

هَبًّا، عَبًّا، عَصْفًا

دَبًّا، خِبًّا، عصفًا

عصفًا، عصفًا، عصفًا

وخرجت الطيور من بين أغصان الشجرة وانتشرتْ في كل مكان حولنا. رأيتُ خمسة غِربان هائلة الحجم، تفوق النسور في الضخامة، وحطَّ كل واحد منها على كتف واحد من إخوتي. ولم يستطع أي أحد من إخوتي أن يفعل شيئًا، ورأيتُ الرعبَ فظيعًا في أعينهم. لم أستطع أن أحتمل المنظر وأحسستُ بشفقة مفاجئة نحوهم، فحاولتُ النهوض لكي أحاول أن أفعل شيئا لإنقاذهم مع أنهم لا يستأهلون شفقتي. ولكن الأحبال التي ربطوني بها منعتْني من أن أفعل شيئًا. صرختُ في الغربان وأنا أستجديها أن تبتعد عن إخوتي. صرخ في وجهي غراب منهم وقال:

- اسكتْ يا عبيط. شفقتُك عبطٌ الآن. دعهم يتخبّطون.

فكررت الغربان وراءه:

- يا عبيط، دعهم يتخبطون، دعهم يتخبّطون يا عبيط.

وما أن انتهوا من كلامهم، نقر كلُّ غرابٍ عينيّ الذي يقف على كتفه نقرتين مباغتتين وسريعتين. وعادت الغربان إلى حجمها الطبيعي وإلى الشجرة وهي تردد:

عَصْفًا، عَصْفًا، عَصْفًا

عاصفاتٌ، عاصفاتٌ، عاصفاتٌ
مأكولًا، مأكولا، مأكولا
عَصْفًا، قَصْفًا، وَرْطًا

أَخَـذَتِ الزرازيـرُ تتـبرَّز عـلى إخـوتي الذيـن كفُّـوا تمامًـا عـن الـصراخ كأن شـيئا لم يحـدث. تقمَّـص كل منهـم شـخصية ضريـر، مـع أنهـم عميـان بالفعـل بعـد نقـر الغربـان لأعينهـم، وقلّـد كل منهـم شـخصًا يتعكّـز عـلى عصـاه، ويمـد يـده الأخـرى للأمـام، وكل منهـم ينـادي ويقـول تقليـدًا لفيلـم «واسـلاماه»:

- «جهاد، أين أنتِ يا جهاد؟»

وسـار كل منهـم في اتجـاه مختلـف عـن الاتجـاه الـذي سـار فيـه الآخـر، ولكنهـم عندمـا وصلـوا إلى سـور المنـضرة القديمـة أو سـور الحـمّام القديـم، قـال كل منهـم تقليـدًا لأحـد الأفـلام:

- «لِفّ وارجعْ ثانيًا».

وجرى كل منهم إلى أن اصطدموا جميعًا ببعضهم. وعندها قال كل منهم:

- هل هذا يُرْضِي ربّنا يا جهاد؟! أين كنتِ يا بنتَ النَّاسِ؟

وحضـن كل منهـم الآخـر كأنهـم التقـوا ببعضهـم البعـض بعـد فـراق طويـل. وعندمـا تحسّسـوا أجسـام بعضهـم البعـض، صرخـوا جميعًـا تقليـدًا لأحـد الأفـلام أيضـا:

- «اجْرِ يا مجدي».

وهنـا خـرج الغربـان بالضخامـة نفسـها وصكَّـتْ أجنحتَهـا ببعضهـا البعـض سـبع مـرات متتاليـة، ثـم حطّـت عـلى أكتافهـم، فاسـتكانوا تمامًـا. ودفعتهـم الغربـان بأجنحتِهـا نحـو الدكّـة، فجلسـوا جميعـا عليهـا، ولا أدري كيـف اسـتطاعوا هـم الخمسـة أن يجلسـوا عـلى دكـة واحـدة تكفـي ثلاثـة أشـخاص في الغالـب. ومـع أنهـم بـلا عيـون، بـدوا كأنهـم ينظـرون في الفـراغ وعـلى وجوههـم ملامـح لا مبـالاة مسـتفزَّة، كأنهـم أمـوات بـلا روح. وجـاءتِ

الزارزيـر وتـبرّزتْ عـلى رؤوسـهم وأكتافهـم، وهنـا فقـط حرّكـوا أجسـامهم وصاحـوا مهلّلـين وكل منهـم يقـول للآخـر استبشـارًا بتـبرُّزِ الـزارزر عليهـم:

- ستكتسي يا ابن المحظوظة!!

وأخـذ كل منهـم يتحسّـس ملابـس الآخـر ويتفحّصهـا وهو يبـدي علامات إعجـاب عـلى وجهـه. همسـوا لبعضهـم البعـض بكلـمات لم أسـمعها، وبعـد همسـهم تبادلـوا الأماكـن عـلى الدكّـة، وملّـس كل منهـم عـلى ملابسـه باستحسـان، كأن كلًّا منهـم يرتـدي ملابـس جديـدة ويستكشـف جمالهـا أو جودتهـا بيديـه. ومـا أن رضي كل منهـم عـن ملابسـه، همسـوا لبعضهـم البعـض مـن جديـد ثـم رفعـوا أصواتهـم قائلـين:

- ألن نبدأ؟ هيا بنا نبدأ.

ونهضـوا وتحركـوا نحـوي كأن عيونهـم مـا زالـت موجـودة. وهنـا صـدر صـوت اصطـكاك أجنحـة الغربـان، فعـادوا إلى أماكنهـم عـلى الدكـة، قائلـين:

- يبدو أننا ليس لنا نصيب اليوم. الصباح رباح بإذن الله.

وأرجـع كل منهـم ظهـره ليتكـئ عـلى الدكـة، وأسـند عصاتـه المزعومـة عـلى مسـند الدكـة مـن الـوراء، واسـتغرق في النـوم، كـما بـدا لي. وتحـوّل منظرهـم إلى الظـلّ بالنسـبة لي، وبـرزت الطيـور في المسـافة الفاصلـة بـين دِكَّتـي ودكَّتِهـم.

حطَّـتْ زرزورتـان عـلى جسـمي عـلى الدكَّـةِ عنـد موضـع الحبـل الـذي كان مربوطًـا حـول جسـمي. بـدا لي كـما لـو تحـوّل منقاراهـما إلى يديـن لشـخصين بارعـين، وبـدآ في فـك الحبـل بسلاسـة. ومـا أن انْتَهَيَتَـا مـن فـكِّ الحبـل، نقـرت كل واحـدة منهـما أنفـي سـبع مـرات، ثـم انتقلـتْ إلى الخطـوط التـي رسـمها إخـوتي بالفحـم مـن قبـل عـلى جسـمي، وأخـذت تمسـحه بصدرهـا وكأنهـا تسـبح في مـاء فـوق الخطـوط بالضبـط إلى أن امحـت الخطـوط. وأحسسـتُ بأنـه كـما لـو كانـت في جسـمي شروخ مـن قبـل وبـدأت تَلْتَـمُّ وتلتئـمُ. شـعرتُ ببعـض الألم الخفيـف الـذي بـدا لي

كما لو كان يتحرك في جسمي مع الحركة البطيئة للشروخ وهي تردم الفجوات بين بعضها البعض.

حطَّ غرابان بجانبي على طرفي الدكة. ثم انتقلا إلى جسمي. لامس أحدُهما بمنقاره وعينه موضع قلبي، ويبدو أنه أخذ يهمس بأشياء أو ينقل لي بعض الأشياء التي لم أفهمها، ولكنني أحسستُ بشيء يتغيّر داخلي، كأنَّ همسَه أو نقلَه أرسلَ إشارةً بدأتْ في الانتقال إلى رأسي، وأحسستُ بكتلة غضب في عيني، تلقّفها الغراب الآخر ولضمها بإشارة أخرى، إذ كرر نفس حركة الغراب الأول، ولكن بعد أن أَغْمَضَ عينيّ، كأنه يخشى أن ينقرهما. أرعبني خيالي السينمائيُّ، فالمشهد بهذه الطريقة يوحي بأن الغرابين يستحضرانِ مشهد الغراب بين قابيل وهابيل ولكن في موقف معاصر لي، ومنطقُ هذا المشهد يقول بأن الغرابين يعلّمان إخوتي كيف يدفنونني أو يحترمون موتي أو ينبّهانهم إلى ما اقترفاه في حقّي، ولكنني أدركتُ أن إخوتي عميان الآن ولن يروا شيئًا، وبالتالي فإن التعليم الذي ظننتُ أنه يستهدفهما ليس موجَّهًا لهم. هل هو موجَّهٌ لي أنا شخصيا؟ ما الذي يريدان أن يعلّماني إيّاه؟ أذكر من قبل أن الغربان في «طقوس العبور» وفي «على أعتاب العبور» كانت تتكلم لي أو معي بطريقة فيها شيء من الوضوح. ومن المفترَضِ الآن أن أجد هذا الوضوح. وابتسمتُ عندما وجدتُ الغرابين يعيدانني إلى الواقع بأن نقرا رأسي سبع مرات متتالية كأنهما ينبّهانني إلى شيء ما أو يدعوانني إلى أن أنظر للموضوع بعيون جديدة. أحسستُ بصفاء في عينيّ، وكأن بصري قَوِيَ ولا حاجة لي لأن أذهب إلى طبيب ليضع لي مواصفات نظّارة جديدة.

نقر أحدُهما يدي سبع نقرات ونقر الآخر يدي الأخرى سبع نقرات، وسحب أحدهما يدي نحو رأسي وسحب الآخر يدي الأخرى بالمِثل، وأحسستُ بطاقة تسري في جسمي، طاقة أحسستُ بأنها سَرَتْ

في جسمي من قبل، ولكن لم أذكر متى أو في أي موقف، ولكنها طاقة لذيذة، إذا كان للطاقة أن توصف بأنها لذيذة، ووجدتُني أنتفض وأمتلئ بقوة جديدة تفوق قدراتي، فقفزتُ من على الدكة إلى أعلى السور وواصلتُ قفزي في الهواء إلى أن انطلقتُ في الغيط...

لم أستطع أن أنظر للوراء، لكنني شعرتُ بالامتنان للزرازير، وفي الوقت ذاته حاولتُ أن أعتذرَ لها، فلقد كنتُ في صغري أذبح ربما أجدادَها أو أجدادَ أجدادِها، فلا أعرف بالضبط مُدَّةَ الجِّيلِ عند الزرزور أو متوسط عمره، ولم يسمح لي البرزخ الضبابي بأن أتذكَّر آخر موقف لي مع الزرازير قبل هذا الموقف. وشعرتُ بامتنان أكثر للغرابين، ولم أعتذر لهما على شيء، فهما صديقاي منذ مواقف سابقة لي مع الغراب الأب. افتقدتُ الهدهد، ولا أعرف إن كان في اللحظات الأخيرة مازال يراقب المشهد أم أنه نقل نفسه إلى مكان آخر... دقَّ جرس هاتفي.

الفصل الثاني

نعم. أدركُ الآن أنها زوجتي التي كانت تتصل بي، بالرغم من رنين الهاتف طوال تلك الأيام أو الأسابيع أو الشهور، لا أدري بالضبط. يبدو أنه عندما يصير الزمن كتلة واحدة، كالمكان الأصم في البرزخ الضبابي بلا أحداث قد تتكشف الروابط بينها، تفقد الحساباتُ معناها، ويصير دوران الأيام دائرةً بالمعني الحرفي، تنتقل من لحظة لتجد نفسك راجعًا إلى مبتدئها من جديد، مثلما كان إخوتي يعودون إلى بداياتهم العبثية في كل موقف ومشهد مما كانوا يفعلونه معي منذ قليل، كأن التحوُّلَ ثباتٌ، وكأن كوب الشاي – الذي ينتزعونه من يدك ويرتشفونه ثم يكسرونه لتتناثر شظاياه تحت قدميك – لقطةٌ مصوَّرَةٌ بالفيديو لا تملُّ إعادةَ تشغيلِ نفسِها أمام عينيك، لكنها كانت في تلك الكتلة من الزمن لا تجعلك تبتسم أو تستعيد إحساسَ رأسِكَ بالترابط بين ما يعود من غيبته داخل تلافيفها – نعم، ها هي الجملة تعود: لم يكن الرنين يكشف عن أية دلالة لاسم المتصل، وكأن الاسم تحول إلى أرقام غريبة، أو أن نغمة الرنين التي أدركُ الآن أنني خصَّصْتُها من قبل لرقم زوجتي واسمِها فقدتْ أصلَها في رأسي وصارتْ مثل كل النغمات: متماثلة إلى حد الإبهام أو الإطناب، بلا تاريخ، بلا دفء، بلا روح.

ابتسمُ عندما يعود الاسم بكامل حضوره، تعود النغمة بمعنى يدق بابًا موغِلًا في الذاكرة أعرف مكانَه ولا أستطيع أن أصل إليه في الحال، ولكنَّ اكتشافَ مكانِه حدثٌ في حدِّ ذاته يستأهلُ الابتسامَ والفرحةَ وصيحةَ الاكتشاف وسط هذا المشهد الكابوسي، وكأن الكابوس في حد ذاته مقدِّمَةٌ للاكتشاف، للتواصل، للحضور المتزامن لكل ما يريد هذا الكابوس أن يقضي عليه، ها هو الاسم يتجلى لي بكامل حضوره وتألقه ويردُّني إلى ما لم يكن أمامي سبيلٌ للوصول إليه، للالتحام به، لما يربط تفاصيل حياتي...

خجلتُ من أن أردَّ على اتصال زوجتي، وربما لم أُرِدْ أن أُطلِعَها على شيء كهذا وأنا أجري هكذا لاهثًا بين الغيطان، فلقد تركتُها تتولى توصيل الأطفال للمدارس والقيام بكل شؤون الحياة في غيابي وجئتُ لأمي لأطمئن عليها. ها أنا أتذكَّرُ: جئتُ للاطمئنان على أمّي، وأنا واثق تمامًا من أن زوجتي تستطيع أن تدير أمور بيتنا وأطفالنا ببراعة. ياااااااااه! كأنني لم أرَ زوجتي وأطفالي منذ سنوات!! وأين أمّي؟ هل رأيتُها عندما جئتُ لأطمئنَّ عليها؟ لماذا لا أستطيع أن أتذكَّرَ أي شيء عنها في فترة ضياعي؟! ومنظرها وهي تقف عاجزة وحائرة أمام شظايا الزجاج منظر يوجع القلب ويعاودني الآن كسكاكين تقطِّعني. ولكن هذا المظهر ذاته يوحي بالغرابة، وكأنني كنتُ أتخيّله. ولكنني سمعتُ أخي الرابع ينهي إخوتي الباقين عن ذكر اسمها أو ندائها! هل أخي هذا طبيعيّ؟ ما الحركات التي كان يؤديها بأصابع يديه وجعلت شظايا الزجاج تلتئم وتتصل ببعضها وكأن الذي انكسر يمكنه أن ينصلح؟ لا أظنُّ أنَّ أمي كانت ستسمح بحدوث أي شيء مما فعله إخوتي؟ هل كانوا يمنعونها من أن تأتي إليّ؟ هل ما زالتْ مريضة ولم تستطع أن تتحرك لتأتي إليّ وترى ما يفعله إخوتي؟ الحمد لله على كل حال، فمعنى أنني تذكّرتُ زوجتي يقول بأنني سأتذكّر كل شيء بالتفصيل بالتدريج، وسأخرج من البرزخ الضبابي إن شاء الله...

***

لا أذكر أنني سريع الحركة هكذا، ولا أذكر أن قدمي تستطيع أن تقفز مسافة أضعاف المسافة بين قدم والأخرى عند أوسع مدى لهما. شكرتُ الغرابَينِ في سرِّي، فَرِحْتُ بقفزاتي وانقبض قلبي في الوقت ذاته. أحسستُ بأن شيئًا انكسر داخلي وبأن نارًا تشتعل. خُيِّلَ إليَّ بالرغم من بقايا ضوء الشمس بعد غروبها أنَّ جسدًا تشتعل فيه النيران يجري بين بيتنا وبيت ابن عمي.

أذكـر قديمًـا، ولا أذكـر إن كان حقيقـة جسـدية أم حقيقـة شـبحية، أن امـرأة يقولـون إنهـا ابنـة خالتـي أو عمتـي تجـري والنـار تشـتعل في جسـدها، أكان ذلـك يـوم زفافهـا أم بعـد ذلـك؟ هـل أشـعلتِ النارَ في نفسـها أم أن أحـدًا أشـعل النـار فيهـا؟ ربمـا كانـت ترفـض الـزواج، أو يقولـون إن شـبحًا يسـكنها رفـض زواجهـا مـن ابـن عمتهـا. ولم أسـتطع طـوال سـنواتي القديمـة أن أعـرف تفاصيـل قصتهـا بالضبـط، فـكل شـخص يـروي حكايتهـا بطريقتـه، وفي كل مـرة تختلـف تفاصيـل كثيرة مـن حكايـة لأخـرى، وكانـت حكاياتهـم تجعلنـي أحـسّ بـأن الواقـع ليـس لـه وجـود، فتفاصيلـه مجـرد حكايـات يحكيهـا كل منهـم بطريقتـه وربمـا لأهـداف خاصـة بـه، فهنـاك جـزء واحـد حقيقـي: قريبـة لي كانـت النـارُ تشـتعل فيهـا. أمـا التفاصيـل الحقيقيـة أو الواقعيـة للموضـوع كلـه فـلا سـبيل لمعرفتهـا، لأنهـا تختلـف باختـلاف الشـخص الـذي يحكيهـا أو يصفهـا. ولم أسـتطع أن أتأكـد إن كانـت قـد أشـعلت ابنـة عمّتـي أو خالتـي النـارَ في نفسـها أم أشـعلوها فيهـا أو أشـعلها ذلـك الـذي يقولـون عنـه إنـه شـبح. مـا بعـد ذلـك كلـه حكايـات. هـا هـي رأسي صافيـة وتسـتطيع أن تتذكـر وأن تفكّـر. رحمهـا اللـه..

لم يكـن جسـد امـرأة ذلـك الـذي رأيتُـه أو خُيِّـلَ إليَّ أننـي رأيتـه، واقعًا أو افتراضًـا. كان رجـلا كأنـه عامـودُ نـورٍ مـن ذلـك الـذي كنـا نسـمع عنـه قديمًا يخـرج لـك عـلى الطريـق أثنـاء سَـيْرِكَ، ومـا أن تقـترب منـه حتـى يجذبـك إليـه ويتحـول إلى حُـمَارٌ يعلـو بـك ويعلـو في عنـان السـماء لـترى الحقـول كلهـا حولـك أشـباحًا والسـماء سـوداءَ قبـل أن تكـون هنـاك كهربـاء. ولا يمكنـك أن تنـزل مـن عليـه إلا إذا كانـت في جيبـك مطـواة، فتنغـزه بهـا ويضطّـر إلى أن ينكمـش ويعـود حـمارًا كـما كان، وكأن الشـبح يخـاف مـن المطـواة!! هـل يعـود ذلـك إلى أن الحديـد المصنوعـة منـه المطـواة ليـس مـن معـادن الأرض وأنزلـه اللـه مـن السـماء؟ كـما يقـول اللـه تعـالى في سـورة الحديـد: «لَقَـدْ أَرْسَـلْنَا رُسُـلَنَا بِالْبَيِّنَـاتِ وَأَنزَلْنَـا مَعَهُـمُ الْكِتَـابَ وَالْمِيـزَانَ

لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ». يبدو أن هذا هو التفسير الوحيد الذي يجعل الشبح أو الجن أو أيًّا كان اسمه يخاف من الحديد. يبدو أن بأسَ الحديدِ فيه منفعة كبيرة. وهل يخاف الجنُّ فعلا من الحديد؟ أم أن خوفه هذا مجرد تفصيل من التفاصيل التي يضيفها رواة الحكايات؟ وهل ينفع الحديدُ في كل المواقف؟!

هل الذي جعلني أرى ذلك... ها هو السؤال يتوقف أو ينقطع، وسط الحقول في المنطقة التي كانوا يقولون إن عامود النور يظهر فيها، وربما أنا رأيتها أحيانًا عندما يمتزج الواقع والخيال، أو الواقع الذي شَهَدْتَه والواقع الذي حُكِي لك عنه، لا تعرف إن كنتَ أنت حُكِي لك عنه أم شاهدته بنفسك. فيبدو أن الذاكرة تتحول مع مرور الوقت إلى برزخ ضبابي في جانب من جوانبها، عندما يتعلق الموضوع بموقف أو حدث قديم. ما السؤال؟ من ذلك الذي جعلني؟ وماذا فعل؟ ولماذا أبدأ في تذكُّرِ ما ضاع من الذاكرة ويضيع السؤال الذي أطرحه الآن قبل أن أتوصَّل إلى نهاية له؟ وهل أنا الذي أسأل هذا السؤال؟ أم أن الذاكرة هي التي تحكيه له وتتركني في منتصفه، كتلك الحكايات التي لا تعرف إن كانت أحداثا رأيتَها وحدثتْ لك أم حكاها أحدٌ لك أو عنك؟ يبدو أنه عندما تتباعد الأماكن وتتباعد الأزمنة في الذاكرة يصير المشهدان مشهدًا واحدًا، وتصير الأقوال أحداثًا حقيقية وتصير الأحداث كلامًا قاله شخص بلغة مبهمة، وربما قاله طيفٌ ما أو خاطرٌ ما، دون أن تستطيع أن تصل إلى حقيقةٍ أو واقعٍ أو برزخٍ صافٍ، وها أنا أتوغَّلُ وسط المكان، ويُفترض أن ينفصل إلى مشهدين. ولكن يبدو أن المكان غير مكاني، وأن التاريخ يترك بصمتَه على روح المكان بحيث يُهيِّئه ويبدِّل ذاكرتَه.

عـاودني الإحسـاس بالانقبـاض وراودني شـعور بـأن أمـي ماتـت، شـعور غامـض أخـذ يُثقِـلُ خطـوتي، يجعـل خطـواتي تـئنُّ وهـي تسـير عـلى طريـق نجاتِهـا كأن برمجتَهـا تضطـرب، فأمـرٌ يدفعُهـا للأمـام، وأمـرٌ يدفعهـا للـوراء لا تسـتجيب لـه، لكنـه يبلبـلُ الأمـرَ الأول، وكأنهـا تريـد أن تـدور في نفـس المـكان لتتجـاوزَ سرعتُهـا إلى أن تصـير صفـرًا. هـل سرعتُهـا هـي التـي تصـير صفـرًا أم ثقلهـا هـو الـذي يصـير صفـرًا؟ أم أن زمانهـا يصـير لا شيء إذا فكَّـرتُ في التراجـع خطـوة للـوراء؟ تفـرُّ مـن رأسي ألـف فكـرة تدعـوني للتقـدم للأمـام، لتختلـطَ عـليَّ المَشَـاهِدُ ويضطـربَ إحسـاسي بمـكانٍ لم أخـطُ عليـه منـذ ثلاثـين سـنة مثـلا، فالطريـق الـذي صرتُ أجـيء منـه هـو ذلـك الطريـق المرصـوف بجـوار التُّرعـة البحريَّـة.

لم أكـن أشـعر بالخـوف عندمـا كنـتُ أسـير هنـا بالرغـم مـن الحكايـات والقصـص والغيـطِ الـذي يتحـوَّل كلـه إلى كومـة جِـيرٍ بيضـاءَ تمامًـا عـلى ضـوء القمـر: مـا أن تقـترب منهـا حتـى تبلعـكَ الأرضُ كأنهـا ستغرسـك شـجرةً تعلـو في أفـق السـماء لتتسـاقط منهـا دمـوعٌ تُـبرِدُ نـارَ كومـةِ الجـيرِ.

كنـتُ فقـط أحـسُّ باضطـراب دقـات قلبـي، بوقـوف شَـعَرِ جلـدي، لكننـي مـن داخـلي لم أكـن أعـترف بخـوفي. فـإذا اعترفـتُ بـه سـأموت في أيـة لحظـة وسـط حيـاة لا تعـرف الكهربـاء ولا تعـرف سـوى الشـقاء والانتقـال مـن أرض لأرض، لزراعـةٍ أو حصـادٍ أو مدرسـةٍ أو تسـوُّقٍ عـلى الحـمار مـن بلـدة بعيـدة.

هـل ماتـت أمـي فعـلا الآن؟ أم أنهـا ماتـت منـذ زمـن مثـلما لم أصـدِّق أن أبي مـات إلا بعـد موتـه بسـنوات في زيـارة لي كهـذه ماتـت فيها أحاسـيسُ كثـيرةٌ داخـلي؟ هـل قيـل لي إنهـا ماتـتْ أم أننـي شـهدتُ موتَهـا أم أن القـول والشـهادة يتسـاويان في الذاكـرة كغيرهـما؟

حمـدتُ اللـه أن أخـويَّ اللذيـن يسـكن كل منهـما في مدينـة مثـلي لم يأتيـا بعـد، فلـو شـهد أخـي الأكـبر مـا حـدث مـا احتملَ قلبُـه المنظـرَ ومات

غـمًّا أو حزنًـا أو لامعقوليَّـةً أو تشـتُّتًا، كأنـه يـرى تاريخَـه ومـا قدَّمـه ومـا ضحَّـى بـه في سـبيل إحسـاسٍ ذاتيٍّ بالمسـئولية ضاعـوا هبـاءً عـلى أشـخاص لا يسـتحقون شـيئًا ولا يُقـدِّرون شـيئًا.

وضعـتُ يـدي في جيبـي لأسـتخرج الهاتـف وأتَّصِـلَ بهـما وأقـولَ لهـما إننـي لم أسـتطعِ المجـيءَ إلى بيتنـا في الميعـاد الـذي اتفقنـا عليـه لِلِّقـاء هنـاك وسـنؤجِّل الموعـد إلى وقـت آخـر.

***

اسـتغربتُ مـن وجـود أكـثر مـن غـرابٍ واسـتغربتُ أكـثر مـن خلطـي بـين الغـراب والهدهـد. أذكـر قديمـا أن الهدهـد كان مألوفًـا، منتـشرًا، متواجـدًا بقـوَّةٍ أو بكـثرةٍ، وكذلـك أبـو العَنَـز، ولكنـه الآن انقـرض، ربمـا مـن التجريـف أو... هـل لأنـه كان يشـارك جدِّيًّـا في الحُكـم أو النقـاش، في المشـورة مـع سـيدنا سـليمان أم أنـه كان نشـيطًا ودؤوبًـا فتـمَّ القضـاء عليـه أو هـرب هـو يأسًـا؟

أكـثرُ مـن غـرابٍ علامـةُ خـيرٍ وعـدلٍ وحيـاةٍ. فأذكـرُ في موضـع مـا أن الغربـان كانـت أمامـي مـن النافـذة شـاهدةً عـلى مَـن ضحَّـى بدمـه في سـبيل الأرض. أذكـر أنهـا في موضـع آخـر، لم يحتمـل الغـرابُ أن تُهـدَرَ كرامـة إنسـان بعـدم دفنـه، فـآواه الـتراب وسـهر عليـه. أذكـر في موضـع ثالـث أن الغـراب أطعمنـي ودلَّنـي عـلى الطريـق، لكنـه كان غرابًـا واحـدًا، وربمـا ظهر لي سـاعتها مـن خيـالي أو كان إلهامًـا كالغـراب الأول في «طقـوس العبـور»، لكـن هـذه الكـثرة تُرجعنـي حرفيًّـا إلى غربـان تحـرس المـوتى، وتـدل عليهـم وعـلى رحلتـي وعـلى... نعـم، نعـم، أذكـر الآن غربانًـا كثـيرة كانـت تـداوي المـرضى والجرحـى والهاربـين مـن الجحيـم، وكنـتُ بينهـم، في تلـك السـنوات القليلـة التـي تلـتْ «طقـوس العبـور»، كأننـي بعـد أن عـبرتُ عـدتُ مـن جديـد إلى نقطـة الصفـر، ثـم إلى مـا قبـل الصفـر، ووقفـتُ حائـرًا «عـلى أعتـاب العبـور»!! لمـاذا كان إخـوتي يـصرُّون عـلى إفسـاد معنـى العبـور؟

كانت طقوس عبور رابعهم هزلية وأسطورية ومليئة بالألغاز والرعب القذر. هل هناك رعب نظيف؟ مثل اللعب النظيف، اللعب العادل؟! أحسُّ الآن بأن طقوس رابعهم طقوس سحرية شريرة، وأن الرعب النابع منها رعب فجٌّ، بلا رؤية ولا هدف نبيل ولا استكشاف لغابات الروح.

ما هذا؟ رائحة هواء ثقيل كأنني أشمُّ رائحةَ الموتِ من أعلى قلعةٍ تتشكَّل ملامحها الآن في رأسي، لكنني لا أذكرها. نعم، قلعة صلاح الدين الأيوبي أو قلعة محمّد علي، لا أذكر بالضبط، القلعة الموجودة في منطقة القلعة بالقاهرة القديمة، وأنا أحضر مهرجان القلعة للموسيقى والغناء وأشمُّ هذه الرائحة داخل القلعة في أحد جوانبها، في الغالب في منطقة كواليس الفرق الموسيقية التي تكون حاضرة في المهرجان. وربما كانت الرائحة تنبع من المقابر التي لا أذكر إن كانت هي «تُرَب الغفير» أم لا، تلك المقابر الموجودة في مصر القديمة، وتنزل من الشارع الرئيسي بعد حديقة الفسطاط تقريبا، وتتجه يسارا لتسير بين المقابر إلى أن تصل إلى مسجد السيدة نفيسة. هواء ثقيل ربما ليس معطِّنًا، ولكنه أَشْبَه بالعطن، أشبه بقرية كنتُ أعمل بها مدرِّسًا ذات يوم، لا أذكرها أيضا، كان بها مصنع... لستُ أذكر... مصنع تفريخ؟ دواجن؟ أعلاف؟ كان هواؤها دائمًا ثقيلًا وبه رائحة غريبة. نعم. مدرسة الشيخ عتمان بالجيزة، على طريق الحوامدية. كنتُ أرى الهواء الثقيل باديًا على وجوه أهلها كل صباح أثناء خروجهم نحو الطريق الرئيسي ليذهبوا إلى أعمالهم أو جامعاتهم أو...

هل هو موتٌ ذلك الذي تنتشر رائحته؟ وأين هواء جهينة وأشجارها وحقولها إذن؟ وماذا يفعلون؟ لماذا يتركون هذه الرائحة ولا يقضون عليها؟ وما بال هؤلاء الإخوة الذين كانوا يتحدثون كأنهم إذا قتلوني سيرثونني؟ من الذي سيرثني إذن؟ نعم، نعم. زوجتي وأطفالي. وبالرغم من أنني متأكد تماما الآن من زواجي، يبدو كصورة ضبابية،

كفكـرة تختلـط مفاهيـم تراكيبهـا ببعضهـا البعـض، فـلا يتضـح أمامـك إن كنـتَ قـد فكـرتَ في الفكـرة وتخيَّلـتَ تحقيقَهـا، فسـجَّلتْها ذاكرتُـك عـلى أنهـا محقَّقَـةٌ، أم أن الفكـرة انعـكاس لواقـع قائـم بالفعـل! أذكـرُ الواقـعَ القائـم، ولكنـه يتبـدَّى الآن في رأسي كفكـرة أو كلمـة مُبهَمَـةٍ لا أعـرف ملامـحَ مـا تـدل عليـه بالضبـط. كأننـي لم أرَ زوجتـي وأطفـالي منـذ فـترة طويلـة، وكأنَّ صُوَرَهـم ضبابيـةٌ أمـام عينـيَّ أحـاول أن أسـتخلص منهـا ملامحهـم، فتعانـدني وأشـعر بـألمٍ في رأسي أو بسـخونة كسـخونة الـدم. أتحسَّسُـها. لا شيء. زوجتـي نعـم. كانـتْ تحـسُّ بـألم الـدورة في موعدهـا بالرغـم مـن حملهـا، وهـا أنـا أحـس بـألمٍ في رأسي كأنـه الحقيقـة، ربمـا يعـاود ذكـرى مـا، خبطـة مـا، نزيـفٍ مـا، سـقوطٍ عـلى الأرض، لا أذكـر. لا أذكـر. ...

زوجتـي وأطفـالي وأمـي، أمـي، نعـم، أمـي، كانـتْ في كامـل عافيتهـا، كانـت مـا زالـتْ تمـشي، تتكلـم، قالـت لي إنهـا تطبـخ لنفسـها، مازالـتْ بصحَّـةٍ تمكِّنُهـا مـن أن تطبـخ لنفسـها وتغسـل ملابسـها، وهـا هـو صوتُهـا يهتـز أمامـي الآن في رأسي كأننـي لا أسـتطيع أن أسـتنبط نـبرة صوتهـا، وتنضـمُّ صورتُهـا مشوَّشـةً إلى صـور أطفـالي وزوجتـي، عـلى طريـق الهـروب والنجـاة...

***

ليـس هاتفـي في يـدي، كأنـه ضـاع وسـط الغيطـان، أو أن مـروري بهـذه الغيطـان أرجعنـي إلى مـروري بهـا قديمًـا عندمـا لم تكـن هنـاك كهربـاء ولم يكـن هنـاك هاتـف أرضي أو محمـول، وربمـا وقـع منـي في هـوّةٍ زمنيَّـةٍ عندمـا قفـزتُ، وربمـا لم أنتبـه إلى أن ذاكـرتي عاودتنـي. بـلا حقيبـة سـفر. بـلا هاتـف. وذاكـرتي مشوَّشـة. هـل أبـكي أم أضحـك؟ وأرتـدي ملابـسي الشـتوية!! ابحـثْ يـا رجـل في طيـات ملابسـك، طيـات!! في جيـوب ملابسـك الثقيلـة في ذلـك الربيـع الـذي جئـتَ فيـه وهـا هـو يتحـوّل إلى شـتاء!

إن كانـت ذاكـرتي قـد عـادت، فيفـترض أن يكـون الوقـت ربيعًـا. وهـل

فقـدان الذاكـرة يجمِّـد الوقـتَ؟ كتلـةُ زمـنٍ تهيـمُ في رأسي، كأننـي رأيتُهـا منـذ وقـت قريـب، أو ربمـا راودتْنـي. وهـل إحسـاسي بالمـكان دون الزمـان يمنـع الشـتاء؟ جيـوبي مليئـة بـكل شيء، كأنهـا حقيبـة سـفري، أو كأننـي كنـتُ أخـشى مـن السـطو عـلى متعلقـاتي فوضعـت كل مـا هـو قيِّـم منهـا في جيـوبي. بطاقـة هويتـي. حافظـة نقـودي. سـماعة هاتفـي. ليـس هاتـف واحـد. هاتفـان! هاتفـي الحديـث وهاتـف مـن النـوع القديـم بكشَّـاف نور. سـأعطي بـه إشـارة في هـذا الظـلام لتنبيـه الهواتـف عـلى الطريـق. لـن أضحـك في هـذا الجـوّ. فربمـا أتحـوّل إلى عفريـت أو تلبسـني العفاريـت! نعـم، نعـم. إنهـا الكهربـاء. أذكـره جيـدا الآن. أحضرتْـه لي زوجتـي عندمـا بـدأت الكهربـاء في الانقطـاع كثـيرًا، كأن المسـئول عـن تشـغيلها يقطعهـا طـوال بياتـه الصيفـي والشـتوي، طـوال غيبوبتـه وعشـقه للظلمـة.

فتِّـشْ يـا رجـل في جيوبـك. لمـاذا كنـتُ أرتـدي ملابـس الخـروج وأنـا جالـس عـلى الدكَّـةِ في بيـتٍ يُفـترض أنـه بيتـي، حتـى ولـو كان بيتًـا غـير دائـم؟ لا، يُفـترض أنـه دائـم، فهـو الأصـل والموطـن والجـذر. ومـن قـال لـك إن الجـذور لا تشـيخ، لا تلفـظ المتعلقـين بهـا، الدائريـن حـول منابـع الحنـين؟

سـكني ليـس هنـا، لكـن بيتـي هنـا، وهنـا تكمـن المشـكلة. أي مشـكلة؟ نعـم، هـا هـي الذاكـرة تلقـي لي خيطًـا، خيـط لا يفـك المعضلـة، لكنـه يجعلـك تتأرجـح بـين الانتـماء والتمـرد، بـين منبعـك ومـكان سريانـك، فالمصـبُّ يتـوزَّعُ عـلى المنبعِ والسريـانِ والأماكـنِ التـي تقابلـك في طريقـك، عـلى البيـت والمسـكن والـرؤى التـي تريـد أن تصـبَّ في أيـادي أجيـال قادمـة. فكيـف بعـد كل ذلـك أقفـز مـن فـوق سـوره هاربًـا؟!!

***

يـراودني هاجـس في شـكل أغنيـة تُدَنْـدن في رأسي بـأنَّ أحـدًا سـيوقفني عـلى الحـدود ويسـألني عـن أوراقـي وعـن هويتـي وعـن نشـأتي، وفي الأرجح

سيمنعني من الخروج، ولا أعرف لماذا التحمتْ فكرة الخروج بآلام المسيح بالهجرة النبوية بالهوية بالملك أوديب، كأنني على مُفتَرَق طُرق؛ والحمد لله أن أبي مات وأمي يبدو أنها ماتت، ولم أقتل أبًا لي ولم أتزوج أمًّا لي. نعم!! أمي ماتت؟!! سمعتُ «أمنا الراقدة في فراش مرضها» ولم أستطع الدخول إليها. لم أستطع الدخول إليها، أَمْ لَمْ أرَها بطول تلك الكتلة الزمنية وعرضها؟ هل كنتُ أتخيّلُها عند حدِّ الزجاج المكسور الذي فرضه أحد إخوتي أمام البيت القديم؟! آآآآآه!!

ما هذا؟ ها هي ذاكرتي تلقي في طريقي مفتاحًا: مكالمة. «ضربَ أمَّك». سيارة أجرة. دم. شجرة التين. صورٌ تتداخل. صراخ أمي. صورٌ تغيب. لا، لا تغيب. تفقد معناها. تراها عيني فلا أفقه لها معنى. لا، أفقه لها مغزى، لكنه غير محدد، صور مبهمة، أشخاص كأنني أعرفهم، أنظر لهم كأنَّ حاجزًا ينفرد على ملامحهم فيحجب وجودهم، وإن كانوا يرسِّبون في عيني غُصَّةً، وفي قلبي ثورةً لا تخرج أو تعصف بهم، يا غريب، كان غريبًا سمعتُ صوته كأنه قادم من أحراش التاريخ، كان صوتًا يبدو كما لو كان يملأ وادِيًا بأكمله لا يسكنه أحد سواه، لا، كان مليئًا بالأجسام، لكن كل جسم كان يهيم على غربته وفي غربته وإلى غربته، كالأرواح المشرَّدة في فيلم شاهدتُه، لا تستطيع أن تحادث أحدًا ولا يراها أحد، وجود حقيقي يشبه الافتراض ووجود افتراضي كأنه الواقع.

وجدتُها! نعم، نعم. كان صوت امرأة كالوطن، الوطن الصغير أرض أبي الضائعة، أو الوطن الأكبر منها الضائع على يد سارقي بصمات المكان. كان صوتها عميقًا مفعمًا متوجِّعًا متأوِّهًا، ها هي أصداء صوتِها تتردَّدُ في أذني:

يا غريب ما الذي جاء بكَ إلى هذا الحجر؟!

ما الذي رمى حُمُولَ العصرِ عندكَ واحتضر؟!

لا تقل أنتَ الذي جنيتَ يومًا يا بشر
قل إنك هنا
ستجيئ يوما إلى هنا
ستعزف يوما نغم الياسمين يا فتى
فهيا استبشرْ
هيا استغفرْ
هيا تعالَ شُدَّ معي
عزيمةَ أوتارٍ تَرْتَخِي.

***

منظر كأنه الخيال، كأن كل غربان السويس تجمَّعت لتحيي ذكرى استشهاد عشرات النعوش، وربما المئات، القادمة على الطريق لتدخل القرية أو البلدة. يراودني حدسٌ أتيقَّن من أنه حقيقة بأن المقابر في الاتجاه الآخر، لكن حُرمة الموت لا تسمح لي إلا بأسئلة محددة:

- ما الذي حدث؟

سؤالٌ قد تستخرج به دمعة من عين، أو عبارةً تكتم على أنفاس مكلومٍ، أو جملةَ غضبٍ تكاد تنفجر في قلب.

- القطار

كلمة واحدة تكررت ببطء...

- دهسهم القطار أثناء رجوعهم من المدرسة.

كانت الشمس قد غربت، وهذه الأعداد لا تتجمع إلا في أتوبيسات المدارس الخاصة، وأعرف أن المدارس الخاصة لا تعمل لفترة مسائية. يبدو أنني بدأتُ أخرِّف. هل هناك مجال للتفكير المنطقي أمام الحزن؟ ياااااااااااه. تراودني أغنية قديمة ربما عن «بحر البقر»، عن الأطفال الذين كانوا يحملون ألوانهم، يحملون كُرَّاسَاتِهم، ولم تتبقّ إلا بُقع دمٍ للكراسات شاهدةً على انعدام الضمير، اللامبالاة، الغدر...

شاهدةً أيضا على حكومة ربما تُشعل النار في بلد كاملٍ تسلية أو تُغرِق عبَّارة لتثبت لنفسها أنها لا شيء يهمها لتفرح بمباراة بعد إغراقها، أو لتحتفل بنصر كروي كأنها ترتدي كل الأقنعة وتجسد كل الحياة، كأن سلطتها لا ينقصها إحساس، كحكومة تترك بلدًا يجف وتحتفل على الشاشات بانتصارات وهمية وسلطة كأنها الخراب، حكومة تتنصل من المسئولية، كالكاذب والسَّفَّاح الذي يتنصل من جرمه بالقسم بأغلظ الأيمان. مجزرة بالتأكيد.

هل أرجع مع هؤلاء الذين يحملون النعوش بالرغم من أنني لا أعرف وجهتهم وأعرِّض نفسي لإخوتي؟ أم أترك الغربان ورب الغربان يحرسون أرواحًا ترتقي بخطواتها إلى سلم الجنة؟ هل أترك غربانًا تحرس أجسامًا إلى أن تنبت من جديد لتطيح بكل فاجر وجشِع وطمَّاع؟

ومع ذلك، تكادُ رائحةُ الموتِ أو الهواءِ الثقيلِ تتجسَّدُ في طبقة سميكة تسدُّ مسارَ الهواءِ نحو رئتيّ ومسار الدم نحو قلبي، وتوحي بأن الموت سيد الأدلة، سيد الأدلة، أين سمعتُ هذه العبارة من قبل؟ الموت سيد الأدلة، لكن موتانا على يد أولئك العسكر أُخِذُوا دليلا ضدنا. قصيدة ربما. قصيدة، نعم، قصيدة: الموت سيد الأدلة، جثث، أشلاء، أناس يتراقصون، نعم جماعة تتراقص فوق الأشلاء، ولا يهم إن كان الراقصون جنودًا أم جماعات:

الْمَوْتُ سَيِّدُ الأَدِلَّةِ،
لَكِنَّ مَوْتَانَا عَلَى يَدِ أُولَئِكَ الْمعسولينَ
أُخِذُوا دَلِيلا ضِدَّنَا:
فَمَا دُمْنَا مِنْهُمْ
أَوْ مَا دَامُوا مِنَّا
هَكَذَا يَقُولُونَ

لا بُدَّ أَنْ نَتَوَحَّدَ مَعَهُمْ،
وَلِذَا قَرَّرُوا إِبَادَتَنَا
لِيَتَّسِعَ الْمَكَانُ لهم
فَيَنْتَشُوا بِالرَّقْصِ عَلَى أَشْلائِنَا!
الموتُ سيّدُ الأدلّةِ
ونحن دليلٌ مقلوبٌ
ينقلبُ علينا ساعة إسدال الستار
وعلينا أن نصفّق لبراعة التمثيل
وعلى صفقاتنا أن تلطم خدودَنا
وتقودنا إلى جزارة المجانين!!

منهم ومنا، منا ومنهم. أهلا بكِ يا أصالة نصري، أكانت تلك الأغنية: «أنا منكم وانتو كمان مني/ عشانكم طول عمري بأغنّي/ وعشانكم هسهر ليالي/ وأهديكم من عمري وفني؟» «قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار». بحيرة البجع. «كهرباء السد لا تمثل سوى 1,2% من احتياجاتنا». الموت سيد الأدلة، لكنَّ هذا الموتَ الذي أشمُّه وأراه الآن يطفح في الهواء كَوَبَاء، كَطَاعُونٍ سهَّلتُه بِلَيْمُونِي، ليمون لك وليمون عليك، وعليك أن تأخذ حذرك في كل مرة قادمة.

آه يا مأساة الليمون والظل الذي بلا جسد! لقد سمعتُ ذلك من قبل، أو ربما خَطَرَ لي. كانت الأرواح تُسفَكُ كما الرقص على الأشلاء، لكن الفاعل هنا والفاعل هناك يتوحَّدان في دهاليز الصفقات المخملية ليفقد الليمون معناه ويصير حريقًا أو أرضًا محروقة كالضياع، نعم، ها هي الكلمات ترتد في أذني كالموسيقى بالرغم من أنها تخاصم موسيقى التهويمات وأوهام الخلافة الـ... ماذا؟ شيء أقرب لكلمة decoy، إغواء! مصيدة! تضليل! خداع! وربما كل هذا. اصطياد بالوعود! تفخيخ الوعود! الاحتواء المُهْلِك! الطُّعْمُ البريء!

وجهٌ جامدٌ
إصبعٌ يُصادقُ الأنفَ
مَعَاصِرُ ليمونٍ تُغرقُ الأرضَ:
«لا لوجهٍ أدمى الأرواحَ».
ليمونٌ يتحوَّلُ علقمًا
أيادٍ تنقلبُ على وُعُودِها
أرواحٌ تنزفُ
أرواحٌ تُسفَكُ
رغيفٌ ضائعٌ
أمنٌ كاميرا خفيَّةٌ
حُرَّاسُ حدودٍ يستبيحونها
وجوهٌ جامدةٌ تصطبِغُ بلونِ الأرضِ
سولارٌ مسكوبٌ ينتظرُ كبريتًا
دائرةٌ مفرَّغةٌ
ليمونٌ يلعنُ نفسَه
ليمونٌ يستغفرُ اللهَ ليلَ نهارَ
يرجوه أن يبرِّأه من دمٍ سفَكَه حبرٌ فسفوريٌّ
وجهٌ جامدٌ تنفكُّ أساريرُه
يبتسمُ
يشيرُ لأنصارٍ وهميين أو حقيقيين
ويُسدَلُ الستارُ على الفواصلِ
ليتواصلَ عرضُ مأساةِ الليمونِ
والظلِّ الذي أخلفَ وعدَه
وأحرقَ حقولَ الليمونِ
كي تشتعلَ نارٌ

تثبتُ أن الظلَّ حقيقةٌ
وأن الوهمَ نهضةٌ
وأن الحرائقَ التهمتْ كلَّ الوعودِ
فلم يتبقَّ شيء ليفيَ به.

آآآآآآآآآآآآآه فلتذهب إلى الجحيم يا ابن الليمون. كيف لك تحوِّل دواءً إلى سمٍّ ورصاصٍ وقنابلِ غازٍ وقطاراتٍ تحصدُ الأرواحَ وحدودٍ تُستَبَاح:

يا ابنَ الليمونِ،
ليمونةٌ كانتْ لكَ لم تصَنْها
ولم تُداوِ بها وطنًا
ستكون الليمونةُ الثانيةُ لي
أعصرُ بها على ضميري
لأعصفَ بتسلُّقِكَ على جذوعِ أبناءِ الأرضِ،
ليمونٌ بليمونٍ والمبادِرُ أَوْطَنُ
فلتهنأْ بليمونٍ لم تصُنْهُ
ولنلتقِ في معصَرَةِ الوقتِ ومفرَمَةِ الطُفَيْلِيَّاتِ الغادرةِ.

كيف لك أن تفصل شجرة الليمون عن شجرة التين وتقول: «اقرأوا كتابي»؟ كيف لك أن تتودد لليمون ثم تمتص دمه وتقول إنك تمص الصدمة؟ وأخٌ يسيِّج شجرة الليمون كأنها لا تلتحم بروح الأرض ولا تُآخي التينَ. ما قبل المجيء. قبل أن يتكتل الزمن. الحمد لله. الصور تتزايد ترابطًا في رأسي. إنها تلك الصورة لليمون ثالثٍ، كأن الليمونَ زيتونٌ وتين. مسافاتٌ ليست كالمسافات، «كلمات ليست كالكلمات»، كيلومترات تظن أنك تقطعها، فتكتشف أنها تريد أن تقطع قدمك من على أرضك، أن تقيم جدارًا يريد أن ينقضَّ وتَحْجُرَكَ خارجه...

تفصلُني الكيلومتراتُ عن شجرة الليمون. لكن المسافات لا تستطيع

أن تحجبَ نظرتَها. أراها على البعد تعاتبني. وأشواكها تكاد تلين من دموع أو أسى أو انتكاس أو استنجاد. سور من بوص يمتد حولها ليفصلها عن شجرة التين، عن أحاديثهما المشتركة، عنِّي وعن أخويّ المغتربين اللذين قطعهما السورُ عن الأرض والمكان وروح النبت. لا أدري إن كنتُ أنا الذي أنظر إليها أم هي التي ترنو إليَّ!! فها هي عندما تكتشف نظرتي، تنضو أوراقها، تنصب أشواكها، تكشف ليموناتها، لتظهر أمامي كما كانت قبل أن يقطع سور نصبه أخي خطواتِ قدمي. أمسح دمعةً لا تحتمل المعنى، فليمونتي ستموتُ إن خرجتْ من تربة اقتطعَها لصوصُ المواريث، وأنا إن خطوتُ نحوها سيقطع اللصوصُ قدمي وسيتحول سور البوص برغم ادعاء الفقر إلى سور اسمنتيٍّ حديديٍّ شاهقٍ تسري فيه الكهرباءُ وأسلاكُ قطع الرحم، وتدقُّ على بابه طبولُ آذانٍ لا تستمع إلا إلى فحيحِ أيادٍ لا تعرف إلا أن تزرعَ الفُرقة...

أنتفضُ، فلا أعرف كيف أستردُّ حقًا ولا أعرف كيف تعلو لغة الليمون في رأسي لتصير شجرة تضرب بجذورها في ورقة وقلب وعقل يقيمون لها وطنا بديلا يأوينى ويأويها، بدلا من هذه الغيطان التي تنبت فيها الأشباحُ، وتفرزُ أوراقُ أشجارها رائحةَ الموتِ والثِّقَلِ والعطنِ والنتانةِ والهواءِ الثقيلِ!

***

نظرتُ للوراء. صحتُ بأعلى صوتي مناديًا على أولئك الذاهبين بأولادهم في نعوشهم نحو الداخل بعيدًا عن المقابر التي في غرب جهينة، كما صرتُ أذكرُ بوضوحٍ:

- أبناؤكم ميتون يا أهلي!

ماذا؟ سحبتُ كلمة أهلي بسرعة، فلا مجال لأهل ولا لعشيرة ولا لكل الكلام الذي لا يُشبع فمًا ولا يُصلِحُ سكَّة حديدٍ ولا ينظِّف مكانًا قذرًا. وفي الوقت ذاته أحسستُ بثقل كلمة «ميتون»، كأن تقول لشخص

«أنت ابن أمك» أو «أنت حيوان»، فبالرغم من أن التعبير في حد ذاته صادق ولا يحمل دلالة سلبية، ينظر إليه الناس على أنه يحمل قدرًا كبيرًا من الإهانة. هل كان الموت سلبية؟ أم أنه كان اتِّهامًا لهم بأنهم تركوا أبناءهم يموتون دون أن يثوروا أو يفعلوا شيئًا؟ استدركتُ وقد صرتُ بجوارهم:

- هل أبناؤكم أمواتٌ أم أحياء يا رجال؟

توقَّفوا، فخطوتُ نحوهم:

- ألا تشمُّون هذا الهواء؟ كيف تريدون أن يصعد أبناؤكم إلى الجنة وهواءٌ عَطِنٌ نتنٌ ثقيلٌ يملأ رئاتهم؟!! هيا نخرج جميعا إلى مكانٍ خارج هذه القرية. المقابر هناك، والهواء الجبلي لا يُبقي للرائحة الثقيلة أثرًا.

صمتوا للحظات، كأنهم يتدبَّرون كلامي أو يفكرون فيما سيفعلونه. ويبدو أنهم يستجيبون وأقدامهم تتسارع على الطريق أمامي، فها هم يطيرون في الهواء، كما لو كانوا في مشهد يجمع بين الفانتازيا والثورة. دخان. قنابل غاز. ثوَّار يتطايرون في الهواء، ليس ألمًا أو إصابة، بل رقصًا، فرحًا، تطايُرًا يوحي باستمرار التمرد والتحدي والوقوف أمام الموت لتأكيد الحياة، كأولئك الذين يتحدون الحصار والبلطجة والهجوم على اعتصامهم بموسيقى زوربا وعشقه للحياة والرقصات التي تستخرج دفقة الحياة من الأجسام التي تقاوم الموت والموات.

استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم وقلتُ لهم:

- قدَّر الله وما شاء فعل يا جماعة.

ولكنني سحبت عبارة «يا جماعة»، بسرعة، ولا أعرف لماذا، ولكن يبدو أن الجماعة لها قصة معي، وبالتأكيد سأتذكّرُها فيما بعد، وكررتُ:

- قدَّر الله وما شاء فعل.

قال أحدهم متجهّمًا:

- نعم، قدّر الله وما شاء. كلُّ مَنْ يموت في عهد الرئيس المؤمن

موتُـه قضـاء وقـدر.

قلـتُ لهـم وأنـا أحـاول أن أبـدو جـادًّا تمامًـا، وأنظـر إلى ملابسي الشـتويّة أيضا:

- هـل أكمـل عامـه الثـاني بنجـاح؟ يبـدو أننـي كنـتُ نائمًـا قليـلًا ولم أشـاهد البرنامـج. البقـاء للـه.

قال بعضهم:

- سيكمل كلَّ أعوامه إن شاء الله.

وأكملـوا طريقهـم وهـم يسـارعون الخطـى كأنهـم يتوجّسـون مـن وجـودي ذاتـه. لم أسـتطع أن ألحـق بهـم، ربمـا لأن وعيـي كان في بدايـة الخطـو، أو أن ثـورتي كانـت قـد بـدأت للتـو في النهـوض مـن مَرْقَـدِ إفقـاد الوعـي ومازالـت تتدبـر خطواتهـا، أو ربمـا لأن الفـرار بالحيـاة وإليهـا كانـت الخطـوة الأولى لـديَّ لـزرعِ هـذه الحيـاة.

كنـتُ أدرك أن الخـروج مـن هـذا الهـواء الثقيـل ورائحـة المـوت، التـي يـزرع بهـا أهـلُ المـكانِ الأرضَ بـدلا مـن الخـضرة، كان يقـود في النهايـة إلى المقابـر ربمـا للتصالـح مـع الأجـداد والشـهداء وبعدهـا الانطـلاق بعيـدا للتأهـل لزراعـة الحيـاة.

نزلـتْ دمعـة مـن عينـي وارتسـمتْ بسـمةٌ حائـرة على شـفتيَّ لم أسـتطع أنـا شـخصيًّا أن أفهـم معناهـا أو مغزاهـا. لكنهـا كانـت بسـمة تقـف عـلى حـد فاصـل بـين الفـرح والحـزن، كأنهـا لم تسـتطع أن تحـدد خطواتهـا بعـد، أو كأنهـا تتدبـر خطوتهـا القادمـة كي تفعـل شـيئًا مؤثِّـرًا يـبرد قلـوبَ أولئـك الآبـاء والأمهـات الذيـن هدَّأتهـم فكـرة الجنـة مؤقتـا بالتأكيـد، ويبـدو أن «الرئيـس المؤمـن» قـال لهـم شـيئًا طمأنَهـم، ولكنهـم في الغـد عـلى الأكـثر سـيفكرون فيمـن قتـل أبناءهـم وبناتهـم، في المسـئولين عـن هـذا الانفـلات أو التسـيب أو الإهـمال أو... سـمِّه مـا شـئت.... وسيحسُّـون أنهـم تناسـوا دمهـم أو باعـوه، أو وقفـوا عـلى الحيـاد، إلى أن طـال القتـل أبناءهـم، وربمـا

كـوَّنَ الإحسـاسُ مبـدأً يحـدِّدون عـلى أساسـه حركـة أياديهـم التـي بإمكانهـا أن تصنـع شـيئًا، أن تغـيِّرَ وضعًـا، أن تقـف قبـل كل شيء موقفًـا مـن ذاتهـا...

كيـفَ أتركهـم يسـيرون إلى حتفهـم هكـذا؟ كيـف سـتنبتُ هـذه النعوشُ في هـذا الهـواء الثقيـل العطـن؟ لا بـد أن ألحـق بهـم، فربمـا اسـتطعتُ أن أقـدِّمَ لهـم شـيئا، بالرغـم مـن أننـي «عَيَّـانٌ» وهُـمْ «ميِّتـون»، ومـاذا يسـتطيع أن يقـدّمَ العيَّـانُ للميِّـتِ؟!!! هـي محاولـة، وربمـا أَنْبَتَـتْ شـيئًا خـارجَ هـذا العطـنِ...

***

سـحبني أصحـاب النعـوش البيضـاء معهـم، كأنهـم قيَّـدوني أو سَـبُوني أو سـحروني أو نوَّمـوني مغناطيسـيًّا لأتحـرَّكَ وراءهـم كالمجـذوب أو المسـحور أو الـذي يسـير نائمًـا. اسـتعذتُ بالله. لم يحـدث شيء. وحَّـدتُ الله. لم يحـدث شيء. كـبَّرتُ، حمـدتُ، سـبَّحتُ، دون أن يتغـيَّر أي شيء. أخرجـتُ الكلمـة مـن فمـي عاليـة:

- انصرفوا.

ضحكـوا كلهـم، وصحـا الأطفـال الذيـن كانـوا مـن المفـترض أنهـم ميتـون في النعـوش، وأخـذوا يتراقصـون عـلى صـدى الضحـكات ويشـيرون إليَّ سـاخرين مسـتهزئين:

- انـصرفْ أنـتَ. مـا الـذي جـاء بـك إلى بلـدة الأشـباح أيهـا الآدمـي الغريـب؟!! هـي بلـدٌ يسـير فيهـا المـوت عـلى قدمـين، علمُهـا كفـنٌ أبيـض، وتـاجُ عُمْدَتِهـا نعـشٌ. رؤسـاء مصالحِهـا حفَّـارو قبـورٍ. وأعضـاءُ أحزابِهـا مسـاعدو حفَّـاري القبـور. أتظـن أن غضبـك وصوتـك العـالي وأنـت تقـول «انصرفـوا» سـيجعلاننا نـترك هـذه الأرض؟! اغضـب كـما تشـاء أيهـا الحـالم، فأنـتَ لسـتَ رائعًـا عندمـا تثـور. لسـتَ سـوى صاحـب كـوب زجـاجٍ تتناثـر شـظاياه تحـت قدميـكَ وأقـدامِ رفاقِـكَ لتنغـرز في أقدامكـم!!

أقسـمتُ لهـم أننـي لم أحطّـم كـوب الشـاي إلى شـظايا، فكيـف أحطّمـه

وفيه نعناع من غيطي؟ أين غيطي؟ وفيه ماء من تحت الأرض أحْضرتُه من الموتور الكهربائي الخاص بنا المتصل بماسورة تعانق رحم الأرض؟ وكنتُ أمسك به وأنا جالس على دكة كان يجلس عليها أبي رحمه الله وكانت تجلس عليها أمي؟ هل أقول رحمها الله؟ الرحمة تجوز على الحي والميت، وأنا لا أعرف إن كانت أمي حية أم ميتة، فكيف لم تحضر بجانبي على الدكة في ذلك المشهد؟ هل كانت إشارة أحدهم إلى الباب المغلق في البيت القديم وكلامه عن أمي محاولةً منه لأن يُفقدني عقلي بالفعل؟ أم أنها كانت موجودة فعلا؟ هل ازداد مرضها إلى هذا الحد؟ هل كانت صورتها الحائرة المستغرِبَة وهمًا تراءى لي؟ لكنها كانت حقيقية؛ فلقد رأيتُ بعينيّ اللذين سيأكلهما الدودُ نظرةَ الفزعِ والخوفِ في عينيها، وحاولتُ النهوض فعلا لأنقذها، ولكن قيودي وسهام نظرات إخوتي أوقفتْني.

ولكن تصرفات إخوتي كانت تقول بأنها كلها تمثيل وتقمُّصٌ، كما أكّد أحدهم. ولا يمكن لأمي أن تخذلني، لا يمكنها أن تترك كل هذا العبث! وحتى لو فقدتُ عقلي بالفعل، ما دخل الأمومة بالعقل أو الجنون؟ ولماذا تختفي عين العقل وجيم الجنون من على لساني؟ هل «من على لساني» أم «من على لسان صمتي»؟ هل الأسئلة عندما تدور في الرأس أو القلب دون أن ننطق بها يكون لها لسان؟ وكيف تتكلم هذه النعوش؟ هل هي القلب أو العقل الميت؟ وهل الموتى يخيفون هكذا؟ هل يهددون هكذا؟ هل يسخرون هكذا؟ أخشى أن تكون كل هذه النعوش تمثيلا وتقمُّصًا غير مُتْقَن، كما شاهدتُ بعيني ذلك ذات مرة على إحدى الشاشات؛ كان الذين من المفترَض أنهم ميّتون يتحركون تحت الكفن الأبيض ويتبادلون النكات ويطلبون من المصوِّر أن ينتظر قليلا حتى يأخذوا وضع الاستعداد.

أنوِّعُ كلَّ نبرات صوتي وأنا أقول لهم: «انصرفوا، انصرفوا، انصرفوا».

أوشكُ أن أدخل في حالة هستيرية قد تُسقطني فاقدَ الوعي أو تعيدني إلى تلك الدكة ومن يتحلقون حولها وحولي.

وجدتُهم يمسكون بي. يربطون يديّ ورجليَّ. يُنزلون طفلا من الأطفال الذين في النعوش، قائلين له:

- انزلْ يا ولد. المشيُ ليس سيِّئًا. سنستضيفُ ذلك الذي يطالبنا بالانصراف على نعشك وندفنه بدلا منك، لتنجوَ روحك وينجوَ جسدك ويتعرَّفَ ذلك الآدمي على دولة الأشباح بحقٍ.

قرأتُ المعوذتين. شددتُ شَعرَ رأسي. غرستُ أظافري في جلد يدي. لم يتغيَّر شيء. ولكنهم لم يفعلوا شيئًا، كأن تهديدهم لي مجرّد تمثيل هو الآخر. ولكن أحدهم أمسك بي فجأة ووضعني على النعش في صمت، دون أن يلتفت أو يهتمّ أحد كأنني لا شيء، أو كأنني كنتُ على النعش من قبل وسقطتُ من عليه، فقام ذلك الرجل بإعادتي إلى مكاني، وكأنه معتاد على كل ذلك ولا يوجد ما يدعو للضجة أو التوقُّف.

أهملوني تمامًا وأخذوا يسيرون كالمنوَّمين أو كالمترفِّعين الذين لا يبالون بأحد. يتحرَّكون تحتي كما لو كانوا بلا أجساد تتحرك أو تهتز، فأنا ثابتٌ تماما في النعش: أنظر إلى السماء: لا قمر يسطع ولا شمس تظهر، ضوء ما بين الضوأين كأنه الظل، أو الضوء الذي يتم استعماله لتصوير الأحلام في الأفلام، وأشجار تتراقص في الهواء في السماء أعلى رأسي، أغصان تتمايل وتتمايل ثم تنظر لي كأنها تريد أن تقول لي شيئًا، ولا أحس بأن رأسي صفتْ ذلك الصفاء الذي يؤهّلها لأن تستقبل رسالة كهذه.

ظننتُ أن سيري وهروبي قد يفتحان هذا الصفاء أمام رأسي. لكن هؤلاء الأشباح الذين لا أراهم أشباحًا، وإنما أراهم... كنتُ أظن أنهم وجوه حزينة على فقدان أبنائهم، لكنني رأيتُهم يستسلمون للموت ويتبادلون الأدوار ما بين الموتى والأحياء، كأنهم لا يخضعون لعالمنا!

آآآآه! هـل هـذا مجـال للسـخرية؟ مـا هـو عالمهـم؟ ومـن نحـن الذيـن في هـذا العـالم؟

ضريـرٌ، لا أعـرف، أنـا هنـا وحـدي. تركـتُ في بيتنا، فيـما يُفترَض أنـه بيتنا، أشـباحًا مـن نـوع آخـر، وهـا هـم أشـباح يعلنـون أنهـم أصحـاب المـكان، وكنـتُ أظنهـم بـشرًا أيضًـا، ويلقّبوننـي أنـا بالآدمـي، كأننـا لا ننتمـي لنفـس النـوع، لنفـس الأرض!! مـا الـذي جـاء بهـم إلى هـذه الأرض؟ هـذه الأرضُ عشـتُ فيهـا عـشرات السـنين: منـذ ولـدتُ إلى أن رحلـتُ، أعرفُهـا شـبرًا شـبرًا، لم تكـن مَسْـكَنًا للأشـباح. أعـرف أن الأشـباح احتلوهـا. أأنـا الآن آدمـيٌّ؟!! نعـم أنـا آدمـي، لكـن هـذه الصفـة تعتـبر شـتيمة الآن! مـن المُفـتَرَض أن كل مـن يوجـدون هنـا آدميـون. لكـن أن يتحوَّلـوا لأشـباح فجـأة وأصـير أنـا الآدمـيّ الوحيـد، فهـذا مجـال للسـخرية، مفتتـحٌ للشـتيمة، كأنَّ كلَّ شيء ضـاع بالفعـل، كأنَّ الأرضَ لم تَعُـدِ الأرضَ، أو كأنَّ وهمـي لم يعـد وهـمًا، تبـدَّدَ وانفتحـتْ عينـاي عـلى حقيقـة شـبحيَّةٍ تُقطِّـرُ... مـن المُفـتَرَض أن أقـول: تقطِّـرُ دمًـا، تقطِّـرُ دمعًـا، لكـن هـل الأشـباح يقطِّـرون دمًـا أو دمعًـا أو مـرارةً؟ وربمـا كانـوا يسـتخدمون ألفاظًـا أخـرى، وربمـا كان الـدم لهـم لا يعنـي أي شيء: مجـرد دم يُسـال، ولا يهـم إن كان دمًـا لإنسـان أم حيـوان أم طائـر أم نبـات أم... هـو دمٌ، ربمـا كان مجـرد مـاء يشربـون منـه، أو ربمـا كان بـرازًا يتخلصـون منـه، ولكنهـم لا يتخلصـون منـه مـن أجسـامهم، وإنمـا مـن أجسـام آخريـن، كأنهـم يقضـون حاجتهـم بتصفيـة أرواح آخريـن!!

مـا هـذا؟ أشـجارٌ، هلوسـاتٌ! يبـدو أنهـم شـعروا بمـا يـدور في ذهنـي، أو ربمـا شـعروا بثقـل جسـمي عـلى النعـش، فهـا هـم يرفعـون الصبـي الـذي أنزلـوه مـن قبـل، ليصعـد إليّ ويفـكَّ أحبـالي. يهمـس لأحدهـم بـكلام لا أفهمـه. ينظـر لي الطفـل... لا ينظـر، فـلا أعـرف إن كانـت لـه عـين أم لا. أخـذ يتحسَّـس رأسي، أنفـي، عينـي، فمـي. ضغـط قليـلا عـلى رقبتـي. ويبـدو أنـه مـلَّ منّـي، فهـا هـي يـده في الغالـب وربمـا بمسـاعدة آخريـن تدفعنـي

لأسقط على الأرض دون أن يَعْبَؤُوا بي أو ينظروا للوراء أو يتذكروا الدرس الذي قالوا إنهم سيعلمونني إياه...

ما المقصود من كل هذا؟ يمكنني أن أستوعب كل ما قام به إخوتي، فهم إخوتي على أية حال، ويمكن لما كان بيننا ولقرابتنا وللصراعات التي بدأتُ أتذكَّر بعضها الآن أن تمدَّني ببعض الخيوط التي تساعدني على الفهم. ولكن ما المقصود من تصرُّفات هذه الأشباح؟ لا أظن أنها وهمٌ، ولا أظن أنها أشباحٌ أيضًا، فأحسستُ باللحم والدم في الذي رفعني على النعش كأنه يرفع ثمرة تفاح أو قطعة قماش سقطت من على النعش. وها هي آثار تقييدي بالأحبال أراها بوضوح على نور الهاتف، وها هي كلمة آدميّ ترنُّ في أذني، وها هم يسيرون نحو داخل البلدة أمامي، وها أنا واقف أراهم بوضوح. ومن الواضح أن هذا العدد من الموتى يقول بأن هناك كارثة تفوق مأساتي الشخصية، ولا يمكنني أن أقف عاجزًا هكذا، فلا بد أن أقدّم لهم كل ما أستطيع تقديمه، وسأتغاضى عن لغتهم الغريبة. ألحق بالذين في آخر الموكب أو الصفّ وأتودَّدُ إليهم، قائلا:

- يبدو أنكم أناس عقلاء وأنا لا أريد إلا أن أقدم المساعدة..

يقاطعونني ويقولون في نفس الوقت:

- أناس؟ وعقلاء؟ يبدو أنك مجنون يا آدمي.

أقول لهم:

- إذا كنتُ أنا آدميًّا، مَنْ أنتم؟

يُنزلون النعشَ من على أكتافهم، وينظرون لي نظرة تهديد ويقولون:

- هل ستعيد سؤال ذلك المجنون؟

أسألهم:

- من؟

يسألونني:

- من أي زمن أنتَ؟

أقول لهم:

- أي زمـن؟ أليـس زمننـا هـذا هـو القـرن الحـادي والعشريـن؟ في سـنة مـا مـن العقـد الثـاني، ربمـا كانـت 2013 أو 2014، فـما أذكـره يقـول شـيئًا وملابـسي الشـتويّة تقـول شـيئًا آخـر.

يقـول أحدهـم وقـد تنحّـى الآخـرون جانبًـا مثـل أخـويّ اللذيـن كان يجلسـان عـلى الدكـة في لا مبـالاة بعـد أن أبلغهـما إخـوتي الباقـون أنهـما لا مـيراث لهـما:

- شتويّة؟!! أي شتويَّة يا ابن شتويّة؟

أقول له غاضبًا:

- لا تتكلّم عن أمّي.

يسألني غاضبًا:

- هل تكلّمتُ عن أمّك؟ أنا أتكلم عن أم ملابسك.

أقول له بمزاح كي أخفّف حدة المشهد:

- إذا كان الموضـوع كذلـك، فـلا بـأس. لكنكـم لم تجيبـوني: إذا كنـتُ أنـا آدميًّـا، فمـن أنـت؟ ومـن أنـت؟ ومـن أنـت؟ ومـن أنـت؟

ولا أسـتخدم صيغـة الجمـع «أنتـم» التـي غضبـوا منهـا مـن قبـل. يقـول أحدهم:

- هل هذا سؤال يحتاج إلى إجابة؟ نحن بشر.

أغمـضُ عينًـا وأنظـر لـه بالعـين الأخـرى وأنـا لا أعـرف إن كان ضـوء الجـو الضعيـف يسـمح لـه بـأن يـرى إغـماض عينـي أم لا:

- يبـدو أنـه فـرق كبـير، ولكننـي لا أعرفـه؛ مـا الفـرق بـين الآدميـين والبـشر؟

أراه يغمض عينًا وينظر لي بالعين الأخرى، وكأنه يقلّدني، ويقول لي:

- اسكتْ يا عبيط.

والغريب أنني لا أتضايق من كلمة «عبيط»، لأن الغراب قالها لي من قبل وهو يقف في صفّي ويساعدني. وأقول له:

- لا مشكلة في أنني عبيط، لكنني أريد أن أعرف الذي حدث؟

يقول لي:

- سأقرّب لك الموضوع. وأقول لك بيتًا من شِعرِكم: مَنْ لم يَمُتْ عَبْطَةً يمتْ هَرَماً للموت كأسٌ فالمرءُ ذائِقُها

لا أفهم ما علاقة العبط هنا، ولكنني أستنبط أن العبط نقيض للشيخوخة كأن يعني الشباب. فأسأله:

- هل تراني شابًّا؟ أحسُّ بأن سنواتي التي جاوزت الأربعين تُثْقِلُ عليّ؟

يقول لي باستغراب:

- أربعين؟ إذن أنت طفل ولستَ شابًّا. لكن ملامحك لا تقول بأنك طفل، ما الذي ساقك إلى الحرب؟ ولا تقل لي إن سؤالي يناقض نفسه، فالعبيط لا يساق إلى الحرب وإنما يستعبط نفسه.

أقول له:

- لا أفهم الكلام ولا أرى التناقض.

ينظر لي بشفقة ويضع يده على جبهتي ويغمض عينيه ويدمدم بكلام لا أسمعه بوضوح، ثم يرفع ذقني لأعلى كأنه يريد أن يتأكد من ملامحي، ويقول:

- يا حرام! كما تقولون أيها الآدمي.

لا أعرف لماذا أستبشعُ كلامه الدائم عن عالمينِ مختلفين: نحن وهم. وفي الوقت ذاته يُقْلِقُني كلامُه، فمن الواضح أنه يعرف شيئا لا أعرفه. ولكنني أتذكَّر كلام ما بعد نزولي من أرض الغربان في «على أعتاب العبور»، فأحسُّ بقدر من الاطمئنان، وأجدني أقول له:

- ربنا يبارك فيك. وجودي من قبل في أرض الغربان يطمئنني إلى حد ما.

يقول لي صارخا وقد عاد الذين كانوا في الظل بجانبنا:

- لا تحدثني عنهم أولئك الغربان الملاعين. يعتبرون أنفسهم رموز الحكمة والعدل وعشق الحياة، وينظرون لنا على أننا ممثّلون بارعون.

لا أجد مفرًّا من أن أسأله:

- من أنتم؟

تحمرُّ أعينهم وأرى احمرارها واضحًا كضوء أحمر متوهِّج ومخيف في الوقت ذاته ويقولون بتهديد واضح:

- لو سألتَ هذا السؤال مرة أخرى ستلحق بشتويّة، يا ابن شتوية.

أحسُّ بأنني أريد أن أسخر من تهديدهم ولكن بطريقة غير مباشرة، فعيونهم مخيفة بالفعل، فأقول لهم:

- لبستُ الملابس الشتويّة.

وأهمُّ أن أغنّي لهم مقطعًا من أغنية «سؤال» في ألبوم «بنتولد» لمحمد منير سخرية من السؤال الذي يتكلمون عنه:

سؤال بأسألك: ايه آخرة الترحال وسهر الليالي وكل يوم بحال؟

سؤال بأسألك: ايه آخرة الأحزان؟ دمعتي موّالي والحنين قتّال

سؤال بأسألك: ايه آخرة الأحلام؟ ليلاتي واخداني في بحر م الأوهام

سؤال بأسألك: ايه آخرة العذاب؟ تاعبني سؤالي؛ يا ريت ألاقي جواب

ولكنني أدرك أن الأغنية غير مناسبة، فهو أكّد على أنه مختلف عنّي، ولذلك أبتعد عن هذه الأغنية وأسأله أسئلة مباشرة متفرِّقة من أغنية «حدوتة مصرية» لمحمد منير أيضا:

مين اللي عاقل فينا؟ مين مجنون؟

مين هوّ صاحب المسألة والمشكلة والحكاية والقلم؟

رأيت كل شيء وتعبت على الحقيقة.

بمدّ ايدي لك، طب ليه ما تقبلنيش؟

فيقولون لي:

- يهمُّنا الاسم. وما دمتَ قد استشهدت بهذا الحالم الواهم المارق المسجون قريبا بإذن الله، فأنتم من طريق ونحن من طريق. هؤلاء على طريق الجنة، وأنت، ابحثْ لك عن طريق بعيدًا عن طريقنا يا أيها الموصوف بأوصاف المسجون قريبا بإذن الله.

وينصرفون قبل أن أقول لهم ضاحكًا:

- هذا فراق بيني وبينكم.

وأودُّ لو أقول لهم: «هذا فراق بيننا وبينكم»، ولكنني لم أعرف من هم، ولا أعرف الذين يجمعون بيني وبينهم. فأنصرف أنا الآخر، ولكن في الاتجاه العكسي الذي كنتُ أسير عليه من قبل وأنا أشعر بانتعاش كأن خطوتي تعانق الإحساس بالأرض من جديد.

الفصل الثالث

المكان كما هو في عيني، فلا يبدو أنه يتأثر بالنسيان أو فقدان الذاكرة، كأن الفقدان في بعض الأحيان انتقاء: يطال الأشخاصَ وعلاقاتك وروابطك معهم، دون أن يصل إلى المكان الذي يجمع كل الأجزاء. ويبدو أن الذاكرة ذاتها مكان ولا يمكنها أن تتنكَّرَ لنفسها، وإلا صار رجوعُها لذاتها مستحيلا، ويبدو أنني لا أستطيع أن أتنكَّرَ لنفسي، فها أنا أعود إليّ أيضا، وها هو الرجوع واقعٌ، أحسُّ بخطواته الأولى، وكأن رأسي استبعدت الأزمنة مؤقتا لتستحضرها ساعة التجلي.

هل كان على إخوتي أن يقوموا بذلك حتى أفرَّ وسط الغيطان لألامس خطواتي القديمة وأعانق هذا البراح الغائمَ؟ وهل كان على أولئك السائرين موتى أن يجعلوني نقيضًا لهم حتى أحسُّ بروح خطواتي وهي تدبُّ على أرض جهينة؟ مع أنني لا أعرف الخبر اليقين، ولا حتى الخبر الحافّ الذي لا تزخرفه أو تحفُّ به أشياء أخرى، وكأنه هو ذاته الحافة التي تظهر للعَيَان.

تحضرُ مسطّحات مائيَّةٌ كأنها الامتداد، اللانهائية، الغموض، الرجوع، الانطلاق، التوقد، الصباح الذي يتنفّس بالرغم من أن الوقت ليل... من الذي أشعل الليل وجعله حصان طروادة، فلا أعرف إن كنتُ داخل الأسوار أم كنتُ خارجها؟

تتأرجح ذاكرتي من جديد، كأنني أرى المكان ولا أراه، لا أراه وأراه، يجمع بين هنا وهناك، بين هناك وهنا، فلا أعرف إن كنتُ راحلًا أم قادمًا! لا أعرف إن كانت الخطوات ذكرى أم أن الذكرى خطوات! وما بال ذاكرتي تحضر في وسط هذا الخراب والاغتراب والرجوع، تُنشئ محطّاتِ توزيعٍ، فترسل الخيوطَ هنا وهناك، وكأن اللقاء افتراض،

والافـتراض والفـراق لقـاء في موضـع آخـر، ربمـا بوجـوه أخـرى، بوجـوه قديمـة تسـترد صفاءهـا، تخلـع قطـرات الشـاي التـي تـم انتزاعهـا منّـي، وكأن القطـرات تبخّـرت وصعـدت لتعـود إليّ بنفـسي، لتسـتحضرني بعيـدًا عـن هـذا المـكان، عنّـي، عـن ذلـك الجـبروت الـذي لا يراعـي دمًـا ولا مـاءً ولا أحبـالًا سُرِّيَّـةً ولا أحبـالا صوتيَّـةً ولا...!

هـل ذلـك البعيـدُ سـورٌ؟ أم أنـه خيـط هُلامـي يتوهّمُـه أولئك الأشـخاص السـائرون مـوتى والممثِّلُـون حيـاةً، ويقصفـون وراءه أحبـالا سُرِّيَّـةً وورودًا بريَّـةً وأحلامًـا فسـيحة؟ لم يكـن ذلـك السـور موجـودًا هنـا عندمـا دخلـتُ البلـدة مـن مدخلهـا المنفتـح عـلى الطريـق الصحـراوي الغـربي عنـد مجيئـي، ولم يكـن هنـاك إلا صـوت أبي الـذي ردّ عـليّ عندمـا ألقيـتُ السـلام عـلى المـوتى في الجَبَّانـة، فاحتضننـي الصـوتُ واحتضنـتُ فيـه خطـواتي القديمـة قبـل رحيلـه وقبـل سـفري، وهـا هـو الصـوت تـلاشى بالرغـم مـن أننـي ألقيـتُ السـلامَ. هـل السـور منـع صـوتي مـن الوصـول للجبَّانـة؟ أمْ أنَّ مَـن بنـاه أزال الجبَّانـة وأقـام مكانهـا حصونًـا لا أعـرف لهـا سـببًا؟ هـل عندمـا دخلـتُ مـن البوابـة عنـد مجيئـي دخلـتُ في كهـف لأصحـوَ الآن عـلى زمـان غـير الزمـان، عـلى مـكان امتثـلَ للخصخصـة وصـار غريبًـا عـن نفسـه وعنّي؟

يـاااااااه! الحيـاة للحيـاة. هـا هـو صـوتٌ - أدركُ الآن أنـه قديـمٌ - يعـاودني، أيـن «بـلاد الذهـب» هـذه؟ ولمـاذا يـئن هـذا الصـوت وهـو يحـن إليهـا؟ لمـاذا يتحـول صـوت الموسـيقى ذاتـه إلى حنـين؟ مـا هـذا؟ هـل هـذه الأغنيـة أيضـا خبطهـا أحـدٌ في ذاكرتهـا؟ لمـاذا يسـخط الصـوت عـلى هـذه البـلاد الآن وقـد كان هنـاك يحـن إليهـا كأن وجـوده ليـس لـه معنـى مـن دونهـا؟ هـو الآن غاضـب، متمـرد، سـاخر، يسـخر حتـى مـن نفسـه ومنّـي ومـن الأغنيـة ذاتهـا، وكأن «مشـتاقين» المطـرب أحمـد منيب حيّرهم العشـق فـلا يجـدون لاشـتياقهم معنـى أو يجـدون لـه معـاني متضاربـة.

مـا هـذه الأصـوات المتداخلـة؟ هـل هنـاك أغنيـة فعـلا أم أن الأصـوات

تحضر من تلقاء ذاتها، لتمتزج على هواها في أذني؟ يدخل صوت أغنية «برّة الشبابيك» لمحمد منير ليؤكد على وجود الغيوم والمطر خارج الشبابيك، ولكنها تعدّل نفسها، فها هو الصوت يعيد صياغة كلماتها وإحساسه بها، فينفي خوفه من الغيوم ومن المطر مع أنه يؤكد على إحساسه بالخطر. وها هو يتجاهل آخر مرة للقاء، ويؤكد فقط على اللقاء الأول. ها هو يرى الحجر حجرًا، والمعدن معدنا، ويبحث عن الإنسان في خروجه على نفسه، ويتساوى عنده الدمع والمطر، القلب والحجر، الموت والخطر، الحزن والوتر... كأنه يستحضر كل الأشياء أمامه وينظر إليها نظرة غير مشحونة، ليراها كما هي، ويفكر لاحقا في كيفية المزج بينها وتحميلها بشحنات إضافية بعد أن يكون قد فرّغها من كل الشحنات السابقة، ويؤكد أنه لا يهمه شيء الآن، لا يهمه حتى أمر حبيبته...

ها هو صوت محمد منير ينتقل إلى شجر الليمون ولا يغيّر في الأغنية شيئا، فها هي أشجار الليمون ذابلة، وها هي المواسم تمر دون أن يتغيّر شيء، وها هو يؤكد أنه ليس عاقلا ولا مجنونا، أنه في ذلك البرزخ الذي تلتقي فيه كل الأشياء، فلا هو هنا ولا هو هناك، ويؤكد أنه «مطحون» مع أنه يحب الحب ويحب العيون التي تنبعث منها الحياة، ومع ذلك ها هي كل الأشياء تُسرق منه، وكل شيء حوله يناديه، وهو ينادي ذلك المخاطب الذي لا يعرف هو إن كان يسمعه أم لا، ولكنه يؤكد على الانقضاء، على أن كل شيء لا يمكنه أن يحتل مواقيت غيره مهما فعل ومهما حاول أن يقضي على هذا الغير.

لماذا تعود إليَّ الأغاني فقط بكامل حضورها وتألقها، ولا تحضر في ذاكرتي أشياء أخرى؟ هل أنا أغنية؟ أم أن الأغاني هي ما يصفو مني في ذاكرتي؟ لماذا تظهر الأغاني أولا؟ لا يهم ذلك الآن، المهم أن شيئًا يعود... ما كل هذه الحياة!! ها أنا أعود لأحسّ بكل شيء من جديد، ها هي

الأغاني تنبض في قلبي، ها هي السماء قريبة، وها أنا بعيد عن أرضي وقريب منها، ها هو السور موجود وغير موجود، ها هي الدكَّة قريبة وبعيدة، ها هي شظايا كوب الشاي تتناثر وتدميني، تتجمّع في دمي وترمِّمُني، ها هو دمّي مُرٌّ وحلوٌ، ها هي القطرات قطرات شاي ودمٍ وماءٍ وأشواكٍ وحميميةٍ ورجاءٍ في غد أفضل، ها أنا أعودُ إليَّ: أجمع بين كل الحالات وكل الشذرات، كأنني متحقِّقٌ وناقصٌ وأسعى للتحقُّقِ، كأنني مشتَّتٌ ومجتَمِعٌ وملتئمٌ... اللهم لك الحمد على هذا البرزخ الشجيّ، على هذا المَجْمَعِ الشهيِّ، على هذه المائدة النيلية.

الفصل الرابع

قالتْ أمي بنظرة متباعدة وهي تنظر إلى الخضرة اليتيمة بامتداد قراريط عاجزة:

- يا ولدي إن كانت الأرضُ لا تعطي مقابلَ همٍّ تحملُه لأجلها فليعدْ أخوكَ إلى أرضنا هنا بدلا من البهدلة في أرض الصحراء هناك. ماذا نفعل؟ كلَّمني أكثرَ من مرَّةٍ وطلب العودةَ، فهو لا يحتمل أن يصبر على صحراء تعانده.

نظرتُ إليها صامتًا. حاولتُ أن أحسب كلماتي جيدا كي لا أجرح مشاعرها أو أغضبها، وفي الوقت ذاته كنت أريد أن أردَّ عليها ردًّا يجعلها تنظر نظرة محايدة دون أن تحابي أحدًا أو تغمض عينيها عن كسل لا يطلب الحياة.

- انظري يا أمي. هل أعطاكِ أحدٌ منا مقابلَ هَمٍّ كنتِ وما زلتِ تحملينه لأجلنا؟

ردَّتْ على الفور كأنها تنفي عنها تهمةً:

- أنا يا ولدي لا أريد مقابلا!

فاستثمرتُ تلقائيتها على الفور، قائلا:

- وهل يحقُّ لنا أن ننتظر من صحراء كالطفل الرضيع مقابلًا الآن؟

غابتْ في صمت عميق بنظرات تتخبط في حيرة كالعاصفة.

ها أنا أذكر الموقف بالتفصيل، وكأنه ما غاب عنّي في يوم من الأيام. صمتتْ أمّي لدقائق وذهبت لتجهّز لي ولها كوبين من الشاي. وسمعتُها وهي تكلّم نفسها في المطبخ الصغير الملحق بالمنضرة في البيت الجديد. قلتُ لها ضاحكًا:

- ماذا بكِ يا بنتَ الأكابر؟ لو كلّمتُ أنا نفسي، سيقولون: عيّل

دماغـه طَاقَّـةٌ والقـراءة لحسـتْ مخَّـه. لكـن مـاذا سـيقولون عنـكِ؟

قالت لي:

- سِـبْني لحـالي يـا ولـدي، كلامـك يـرنّ في أذني مـن جهـة، وكلام أخيـك يـرنّ مـن الجهـة الأخـرى.

قلتُ لها:

- سِيبِيها على الله يا أمي.

قالتْ لي:

- ونِعم بالله يا ولدي، ها أنا سَكَتُّ.

قلتُ لها:

- ربنا ما يُسْكِتُ لك حِسًّا يا أميّ.

جـاءت بكـوبي الشـاي. وضعـتْ كوبًـا عـلى الدكـة بجـواري، ووضعـتْ كوبهـا عـلى الدكـة المقابلـة لي وجلسـتْ. جالـتْ بنظرهـا في المنظـرة مـن حولنـا، ثـم نظـرتْ إلى الأشـجار التـي تظهـر مـن بـين أسـياخ الحديـد. ارتشـفتْ رشـفة مـن الشـاي وأحسسـتُ بأنهـا تتكلّـم داخلهـا، ولم تسـتطع أن تخفـي كلامهـا بالرغـم مـن أنهـا لا تصـدر أصوتًـا، فحركـة شـفتيها كانـت ظاهـرة. ابتسـمتُ وقلـتُ لهـا:

- هـاتي مـا عنـدك يـا أمـي. أعـرف أنـك لـن تهـدئي إلا بعـد أن تقـولي كلّ مـا عنـدك.

لم تبتسم وقالت:

- لا يوجد شيء يا ولدي. أحسنُ لي أن أسكتَ.

قلتُ لها:

- اضحـكي يـا شـيخة، لا تشـيلي هـمًّا. أنـا لا يرضينـي أن تسـكتي وأنـتِ تريديـن أن تتكلمـي.

أطالت النظر إلى كوب الشاي الذي بين يديها. ثم ابتسمتْ وقالتْ:

- ربنا يخلّي لك زوجتك وعيالك يا ولدي.

ابتسمتُ عندما أدركتُ أنها لا تعرف من أين تبدأ، وقلتُ:

- اللهم آمين للجميع يا أمي، ويخلِّيكِ لنا.

قالتْ لي:

- بذمَّتِكَ، ألم تحنّ إلى زوجتك؟

قلتُ لها:

- هي زوجتي وحبيبتي يا أمّي، وإن كنتُ لا أحنُّ لها الآن، فلمن أحنّ؟ لكن كلها أيام وأعود إليها ولعيالي. بلا لفٍّ ولا دوران، ادخلي في الموضوع يا أمّي.

قالت لي:

- هذا هو الموضوع يا ولدي، اوعَ يكون مخّك راح بعيدًا.

قلتُ لها:

- والله يا أمي، لم أعد أعرف إن كان مخّي يروح بعيدًا أم قريبًا أم لا يروح أصلا. العيال كبرت يا أمّي وشالت الهمَّ بدري.

قالت لي:

- سلامتك يا ولدي من الهمّ. كله بثوابه. والذي يروح عند إخوتك لا يضيع.

قلتُ لها:

- ربنّا كبير وقادر على كل شيء يا أمّي. ما الموضوع؟

قالت لي باستغراب:

- كلُّ هذا ولم تفهم وأنت الذي يقولون عنك تفهم الكلمة وهي طائرة!!

قلتُ لها ضاحكًا:

- لا تقلقي يا أمي. كنتُ أفهمها وهي طائرة قبل ما أشمّ رائحة الياسمين واللوتس. أما الآن، فأنا لا أفهم شيئًا.

قالت لي في حيرة:

- الياسمين ونسمع عنه، ولكن ما هو اللوتس الذي تتكلم عنه يا ولدي؟

قلتُ لها:

- لا شيء يا أمي. هذا نبات مرسوم على معابد الفراعنة.

قال لي مستغربة:

- وما الذي ذهب بك إلى الفراعنة يا ولدي؟ ممكن يسخطونك.

قلتُ لها:

- لا داعي للقلق. كنتُ أمزح معك. اللوتس ببساطة مثل أرض تزرعينها ولما يطلع الزرع تجدينه ألوانا زاهية ومنظره منوَّر. وفجأة يولّع واحد في الأرض أو يجيء بلدوزر ويشيل كل الذي تزرعينه.

قالت لي:

- والله أنت حيّرتني يا ولدي: هل أسألك إن كانت أرض قِنَا زهتْ مثل ما تصفها وأخوك يخدعني؟ أم أسألك: ولماذا تسكت عن الذي يحرق أرضك أو يشيل زرعها بالبلدوزر؟

قلتُ لها باختصار وأنا أبتسم:

- المشكلة يا أمي أن الواحد فينا قد لا يعرف أنه كان جبانًا إلا بعد أن يكتشف أنه كان مغفَّلًا، وأنا كنتُ أظن أنني أبو زيد الهلالي سلامة.

قالت لي:

- والله لا أعرف ماذا أقول لك.

باغتُّها وقلتُ:

- يكفي اللف والدوران، ما الموضوع؟

قالت لي:

- أي موضوع يا ولدي؟ الموضوع الذي لم تفهمه؟

قلتُ وأنا أهزُّ رأسي وأنظر لها بنصف عينٍ:

- نعم، الموضوع الذي لم أفهمه.

قالت لي:

- كيف أجعلك تفهم؟ سأوصّل لك الموضوع بطريقة أخرى. أخوك طلب مني أن أطلب منك أن تحضر له بعض البرشام الأزرق. قال لي: «هو عنده في «مصر» أنواع مُعْتَبَرَة. أكّدي عليه أن يحضر لي شريطًا أو شريطين».

ضحكتُ طويلا، ولم أخشَ أن يسمع بعضُ أبناء أعمامي ضحكتي فيُنَشِّن عليها، فالذي حدث قد حدث، والله قادر على كل شيء، وما الذي يمكنهم أن يفعلوه بعد كل ما فعلوه؟ وقلتُ لأمي:

- أنا لا أستعمله يا أمي. الله كُلُّه كرم وفضل.

قالتْ لي:

- هل يعزُّ شريط من البرشام الأزرق على أخيك يا ولدي؟ منذ متى وأنتَ تدلدل يدَكَ بجانبك هكذا؟

قلتُ لها:

- تعرفين أنني لا أدلدل يدي وأن يدي فارطة دائما. ولا مشكلة يا أمي، سأشتري له شريطين في المرة القادمة. لكن لماذا يحتاجهما؟ وما علاقة ذلك بالموضوع الذي تدورين حوله؟

قالت:

- الشهادة لله يا ولدي، لا أعرف علاقته بالموضوع. لكنك تعرف أن أخاك يتعب في شغل الأرض ويجوز أنه يحتاجهم دواءً لتعبه. وسألْنا على الأسبرين في الدكان، قال لنا البائع إنه لم يعد يبيعه.

قلتُ لها:

- لا توجد مشكلة. لن نتكلم عن الأسبرين ولا عن الدكان الآن. ادخلي في الموضوع مباشرة.

ضحكت وقالت:

- قلتُ لك زوجتك، وقلت لك تحنّ إليها، وأنت سيد العارفين.

ضحكتُ وقلتُ لها:

- ألا يأتي أخي أسبوعًا كل شهر ويقضيه مع أولاده؟

قالت لي وما زالتْ ابتسامتها ترافقها:

- أسبوع لا يكفي يا ولدي. أخوك يريد أن يبقى هنا الشهر كله.

رشفتُ آخر رشفة من الشاي وقلتُ لها:

- والأرض يا أمي؟ هو الوحيد المُزَارِعُ فينا. وإن لم يكن هو موجودًا هناك، من سيحمي أرضنا؟ هل سيحميها الغريب؟

قالت لي بما أحسستُ أنه جرأة:

- ليس كل غريب قليل أصل يا ولدي، وممكن تلقى غريبًا يصون أرضك.

قلتُ لها على الفور:

- ليستْ أرضي يا أمي. ما حاجتي أنا للأرض؟ الأرض لإخوتي الذين يعيشون هنا. ستكون لهم في النهاية، فلا أنا مزارع ولا أولادي مزارعون.

قالت لي على الفور أيضًا:

- ولكن إخوتك يقولون إنك تسخّرهم في الأرض، ولم تكتب فدّانًا واحدًا باسم أي أحد منهم.

استغفرتُ الله العظيم وقلتُ لها:

- ومَنْ الذي كُتِبَ باسمه أي فدان يا أمّي؟ أوراق الأرض ما زالت في الوزارة ولم تُسجّل بأسمائنا حتى الآن.

قالت لي بقلق:

- هل فلوسك حرام يا ولدي؟ دفعت فلوسك في أرض ليست باسمك!!

قلتُ لها:

- ليست هذه مشكلتنا الآن. مشكلتك أنك تعرفينني جيِّدًا يا أمي

ومـع ذلـك تصدِّقـين أي كلام يُقـال لـكِ.

قالتْ لي:

- ومن أين لي أن أعرف يا ولدي؟ هل أخوك سيكذب عليّ؟

قلتُ لها:

- اللـه أعلـم بالنوايـا يـا أمـي. ولكـن ربنـا عَرِفُـوه بالعقـل. تخيّـلي الحـال هنـا بعـد سـنوات، وأنـتِ ذاتـك كنـت تشـجعينهم عـلى الخَلَـفِ. الحـال تغـيّر يـا أمّـي. والأكل الـذي يكفـي اليـوم لـن يكفـي غـدًا. قلـتُ لنفـسي: آخـذُ الأرضَ ليتنفّسـوا فيهـا. وأنـا لـن آخـذ مـن الأرض إلا جلسـة هنـا وسـط الخـضرة أو جلسـة هنـاك.

قالت لي:

- يـا ولـدي، إذا كان الموضـوع كلـه جلسـة، فجلسـتك وسـط الخـضرة هنـا عندمـا تـأتي مـن «مـصر» تكفـي.

قلتُ لها:

- المهم راحتك يا أمي، والذي يأكل على ضرسه ينفع نفسه.

قالت لي وقد تهلّل وجهها:

- يعني سيأتي أخوك ليبقى مع عياله يا ولدي؟

قلتُ لها:

- إذا كان الموضـوع موضـوع عيـال، يمكنـه أن يأخذهـم معـه، وهنـاك غرفتـان في بيـت المزرعـة. وهنـاك مـدارس قريبـة. وإذا احتـاج إلى غرفـة أخـرى يمكنـه أن يبنـي الغـرف التـي يحتاجهـا.

قالت لي:

- هـل بعـد كل هـذا العُمـر يـا ولـدي يسـيب الأرض هنـا ويذهـب ليسـكن هنـاك؟ النـاس سـيأكلون وجهَنـا.

قلتُ لها على لسان المطرب جورج وسّوف:

- «كلام الناس لا بيقدّم ولا يأخّر/ كلام الناس ملامة وغيرة مش أكتر»

فقالت لي بابتسامة خفيفة:

- والله أنت فاضٍ يا ولدي.

قلتُ لها:

- الفضاء وَحِشٌ يا أمّي

قالتْ لي:

- سِبْكَ من اللَّقْشِ. أتكلّم بجدٍّ. سأكلمه وأقول له إنك وافقت.

قلتُ لها:

- يااااه يا أمي! لم أسمع هذه الكلمة منذ زمن.

قالت لي بعتاب خفيف:

- ألْقُشْ، ألْقُشْ، ربّنا يكمّل عقلَك.

قلتُ لها وقد نفد صبري ولكنني لم أُرِدْ أن أجعلها تحسُّ بذلك:

- هـا هـو هاتفـي يـا أمـي. كلّميـه وقـولي لـه كل الـكلام الـذي قلنـاه. وشـوفي إن كان سـينفع نفسـه أم سـيأكل عـلى ضِرس غـيره. وكي أخلّـص ضمـيري، لـن يكـون عنـد أي أحـد ضروس فاضلـة ليعطيهـا لأحـد.

قالتْ لي:

- هات الهاتف يا ولدي.

وتركتْني لتتكلـم معـه بعيـدًا عنّـي. فضحكـتُ ودخلـتُ لأجهّـز لنفـسي كـوب شـاي بالنعنـاع.

***

سـمعتُ أغنيـة قادمـة مـن بعيـد، أغنيـة مثـل أغنيـة «فـلان الفـلاني»، للمطـرب باسـم وديـع، ولكـن بنـبرة أقـل حماسـةً وأكـثر حزنًـا؛ وفي كل الأحـوال، هنـاك شـجن وحـزن وأنـين ظاهـر أو خفـي، وهنـاك شـخص أو مـكان أو كائـن غائـب، كائـن تـرك بصمتـه واختفـى، ولكنـه تـرك فراغـا ومسـتودَعًا دائمـا للحنـين. مطـربٌ شـعبيٌّ يجمـعُ خلاصـة الشـعوبِ بصوتـه المفعـم بالأنـين والشـجن والعذوبـة. كانـت الموسـيقى كأنهـا قادمـة مـن

باطـن الأرض. سـألتُ مَـنْ أجلـسُ بجـواره أو مـررتُ بـه في ذلـك المولـد أو الاحتفـال في سـوهاج في الغالـب ويتحـدث عـن المطـرب بحميميـة العـارفِ. قـال لي:

- اسمُه عِبيد الإمام. لن تجد شرائطَه إلا في جَدَّة.

صمـتُّ كأننـي أعـرف كُلَّ تفاصيـلِ جـدّة وكأننـي ذهبـتُ إليهـا مِـرارًا أو أننـي أعيـش فيهـا ولا أحتـاج أن أعـرف المزيـد، وكأن جـدّة لهـا علاقـة بـه أو بـأي فنـان عـلى شـاكلته. لم أسـأله عـن سـبب منـع شرائطـه أو إن كانـت ممنوعـة أصـلا أم أن أحـدا لا يعرفـه سـواه. لكـن الصـوت كان يتـسرّب في هـذا الاحتفـال، ومـن المؤكـد أن الجميـع يعرفونـه، وكنـتُ أحـسُّ بأننـي أنـا شـخصيًّا أعرفـه معرفـة شـخصية، وكأنـه يسـكن داخـلي. كـما أن وصولـه إلى احتفـال بسـوهاج يؤكـد أنـه معـروف ومنتـشر، وفي الوقـت ذاتـه فرحـتُ لأنـه وصـل إلى سـوهاج وصـار لـه جمهـور فيهـا، فجهينـة تقـع في محافظـة سـوهاج عـلى أيـة حـال، وذلـك يضيـف لمسـة إضـاءة ونـور للصـور القاتمـة التـي تغلـب عـلى الكثـير مـن المَشَـاهد.

كان صوتـه أقـرب للكنـة العراقيـة ولكـن بوضـوح يجعلـك لا تفلـت منك كلمـة مـما يتغنـى بـه. وربمـا كان ليبيًّـا أو سـودانيًّا أو صعيديًّـا أو فرعونيًّـا. لم أسـتطع أن أحـدد جنسـيَّتَه، ولم تهمّنـي جنسـيته في ذلـك الوقـت، فلقـد كان صوتـه يعـبر حـدود القلـب ويخـترق حصـونَ الأنـواع الأدبيـة والغنائيـة ويصـل رقراقًـا حميـمًا بالرغـم مـن أننـي كنـتُ أسـمعه لأول مـرة، أو في الغالـب تفاجـأتُ بـه يظهـر مـن داخـلي ويجعلنـي أسـعى وراءه...

عـرض عـليَّ صبـيٌّ كان يمـرُّ بصنـدوقٍ مـليء بأشرطـة الكاسـيت الأصغـر مـن الحجـم المعتـاد أن أشـتري منـه مـا لا أذكـره. كانـت شرائطـه أصغـر بكثـير مـن الشرائـط التـي يسـجِّلُ عليهـا الصحفيُّـون حواراتهـم. رفضـتُ عرضَـه بحجَّـة كفايتـي. فلقـد كنـتُ فعـلا في حالـة اكتفـاء تـام بذلـك الـذي يغنّـي عـلى البعـد ويعـزف عـلى أوتـار أذني بنغماتـه البدويّـة، الطينيـة،

الفرعونيـة، البابليـة، الآشـورية، النوبيـة، النيليّـة، الأمازيغيـة، التـي لم أشـعر بالرغبـة في تصنيفهـا، فكانـت أقـربَ لـروحِ الغنـاءِ وخلاصـة الموسـيقى الآسرة.

مـا بـين اليقظـة والمنـام شـغَّلتُ جهـازَ التسـجيلِ بهاتفـي وسـجَّلتُ اسـمَ عبيـد الإمـام كي لا أنسـاه عندمـا اسـتيقظُ. كانـت أغنيتُـه كأنهـا شيء ينقُصُنـي، كأننـي في حاجـة إلى ذلـك الطـرب الـذي يجمـع مـا بـين الأرض والسـماء، وكأن موسـيقى روحـي سـتلتئمُ بالاسـتئناس بصوتـه والاندمـاج في خبايـا الـروح والثـورة. هـل كان حلـمًا؟ هـل كان مكيـدةً؟ هـل كان صوتًـا يريـد أن يتعمَّـقَ فيّ؟ لم أسـتطع الوصـول إليـه، خاصـة وأننـي عندمـا بحثـتُ عنـه لم أجـد لـه أثـرًا في سراديـبِ الشَّـبَكَةِ. حاولـتُ أن أتذكَّـرَ كلـماتِ الأغنيـةِ، لم أجـد سـوى صـدى يـتردَّدُ في رأسي دون أن أسـتطيع أن ألتقـطَ منـه حرفًـا واحـدًا، فأخـذتُ أُقلِّـبُ في حـروف رؤاي عـلِّي أُبْـصِرُ في حـروفي صـدى لحلـمٍ يؤرِّقُنـي ويُشْـجِيني.

كيـف أتذكّـرُ هـذا الفاصـل الآن وهـو فاصـل ضبـابيٌّ أصـلا وضبـاب الذاكـرة وضبـاب الـرؤى يسـتوليان عـلى رأسي وقلبـي ويقـولان لي إننـي هنـا وهنـاك، إننـي لسـتُ هنـا ولسـتُ هنـاك، وهنـا لهـا عـشرات الوجـوه، وهنـاك لهـا عـشرات الوجـوه؟ أليـس مـن المنطقـي أن يعـاودني هـذا الفاصل بوضـوح، كـما ظهـر لي كلامـي مـع أمـي بوضـوح تـام؟ ولمـاذا تعـاودني هـذه الأغنيـة الآن، ولكـن وسـط هـذه الغيطـان، وسـط هـذه الأشـباح الحـاضرة والغائبـة، وسـط الطريـق التـي لا أعـرف لمـاذا اتسـعت واسـتطالت هكـذا، وكأننـي مجـرد لقطـة لشـخص في فيلـم يصـوّره حامـل الكاميـرا مـن زاويـة بعيـدة جـدًّا ليـبرزَ ضآلتَـه وهضْـمَ العالَـمِ لـه، كأنـه صـار لا شيء، كأنـه صـار عدمًـا يُسـتَدَلُّ بـه فقـط عـلى وجـود الإنسـان، مجـرد وجـود لا أكـثر ولا أقـل، دون أن يكـون لـه حضـور أو فاعليـة أو فعاليـة أو أثـرٌ أو ثـورةٌ؟!

هـا هـو صـوت عِبِيـد الإمـام يعـود، هنـا، في مـكان مختلـف، مـكان أعرفـه جيـدا عـلى الأقـل، غـير مـكان ذلـك الحلـم أو الرؤيـا أو الهـلاوس،

ويختلف صوته أيضا هنا، فنبرته أقرب للموسيقى الجنائزية القادمة من زمن بعيد، كأن الصوت في المكان الحالي وفي الحاضر ينعي ذلك الزمان البعيد، أو أنَّ النعي رسالةٌ قادمةٌ من ذلك الزمن البعيد لتنعي الحاضر وتحاول أن تفيقه، تفيق ذاكرته، تفيق ابتعاده عن خطواته، تنعي الخطوات المهدورة، والخطوات الضائعة، والخطوات التي لم تخرج إلى نور الطريق، إلى آثار الطريق، لم تدب حتى تكون لها آثار.

علامَ تنوح يا عم عبيد الذي لا أعرفك؟ هل رأيتُكَ في تلك الأكفان؟ أم أنك تنوح على شظايا كوب الشاي؟ أم على رشفاته التي تفرّقت بين القبائل؟ أم على الدكة التي ربما أشعلوا فيها النار الآن ليستدفئوا في هذا البرد؟ أم على أمي التي لا أعرف إن كانت حية أم ميتة؟ أم على خطواتي التي وسط هذه الغيطان والتي ربما تدرك أنها خطوات أخيرة، خطوات راحلٍ، خطوات مُفَارِقٍ لا حول له ولا قوة، يضيع في الزمان وفي المكان، كأنه كلمة خرجت في الخلاء فلم يسمعها أحد، أو أنها خرجتْ وسط الوجوه ولكن المكان تحول فجأة إلى خلاء لا يشغله أحد، حتى قائلها ذاته صار جزءًا من الخلاء لا يُعتَدُّ بوجوه، وكأنه صار نَسْيًا مَنْسِيًّا، بدون ولادة أو نخلة أو رُطبٍ أو بشارة، فلا تنفعه لغة الرمز ولا ينفعه التصريح، لا ينفعه الصوم ولا التصريح، لا يحس بالوجوه المستفسرة ولا يرغب في الكلام مع أحد؟!

الفصل الخامس

أحسستُ بتلاشي شجاعتي القديمة، فلقد كنتُ وأنا بين هذه الحقول قديمًا لا أخاف من شيء سواء أكان حقيقيًّا أم يطرقُ رأسي من باب الحكايات. وبدأ قلبي ينتفضُ. قشعريرةٌ تسري في بدني كأنني سأواجه مجهولًا أو غريبًا أو كائنًا من عالمٍ يُخرجني من عالمي ويذهب بي إلى عالم آخر لأكون فيه بلا تاريخ وبلا جغرافيا وبلا أنفاس وبلا بصمات وبلا رؤيا، بلا أوراق، tabula rasa، سبورة بيضاء، لوح أبيض، وتخيَّلتُ نفسي وأنا قد تجاوزتُ الأربعين من العمر بلا ذاكرة، بلا أرض أحس بها، بلا تاريخ أعرف عنه أي شيء، بلا أهل، بلا أصدقاء، بلا سطور وكتبٍ كتبتُها حرفًا حرفًا بدمي، بلا مقاطع صوتيّةٍ سجَّلتُها على جهاز التسجيل بهاتفي نبرةً نبرةً.

أحسستُ بشيء يقترب، كائن، خرافة، حقيقة، لا أدري ما هو، لكن بَشْرَة رأسي أو جبهتي لمستْ يدًا أو جسمًا أو أي شيء من هذا القبيل يلتصق بها. شعرتُ بفارق كبير في درجة الحرارة بين هذا الجسم وبين جبهتي. كنتُ أكثرَ سخونة بكثير وأحسستُ ببرودة هذا الجسم تتسلل شيئًا فشيئًا إليَّ، وأخذتُ أنتفض بشدة كآلة حفرٍ تُشبه الشنيورَ يحاول العامل أو المهندس أن يُحدِثَ بها ثُقبًا في رأسي في مدينة كبيرة أو قرية صغيرة فتنتفض لأنها لا تستطيع أن تقتحم الرصيف بسهولة، أو كأنني في حالة مشابِهَةٍ لإنسان ينتفضُ لأنه احتكَّ بعالم أكبر من عالمنا، بكائنات لا تشبهنا، تَفُوقُنا قدرةً ورؤيةً وبصيرةً، ونقلَ له جزءًا من هذا العِلْمِ وهذه البصيرة وهذا الإحساس وهذه الرؤية النافذة، فلم يستطع جسدُه أن يتحمَّلَ كَمَّ البيانات أو الطاقة، أو سمِّها ما شئتَ بلغتِنا، التي تم نقلُها له، فأخذ ينتفض، كأنك تحقن جسمًا بمادة لا

يحتملها أو تزرع عضوًا في جسدٍ لم يستطع التأقلم عليه أو يحدث زلزالا في قلبك، في صدرك، برؤية شخص، أو النظر في عين امرأة كنتَ تعشقها ولم ترها منذ عشرين عامًا مثلا ورأيتَها فجأة أمامك كأنَّ الزمن لم يتحرَّكْ دقيقةً واحدة طوال تلك السنوات.

أخذت قدماي تفقدان اتزانهما. كنتُ أحفظ هذه الطرقات بالغريزة دون أن أرى حاجتي إلى أن أنظر إلى موضع قدميَّ في كل خطوة. ولكن الخطوات الآن تختلط أمامي كأن المكان نما أو كبر أو غيَّر هيأته، أو كأنَّ زمانًا قديمًا فارقَه فأخذ ينتحب ويتعرَّج إلى أن تغيَّرتْ ملامحُ خريطتِه تمامًا، فها هي الطرقات تختلط عليَّ، وما كنتُ أظنُّه اتِّجاهًا من الطريق وأتَّجِهُ نحوه تلقائيًّا أجده بيتًا وتكاد رأسي تصطدم بجداره...

لم يكن أمامي سوى أن أمسح خريطة أعادتْها لي ذاكرتي بكامل تفاصيلها كأنني لم أغبْ عن المكان يومًا واحدًا. نحَّيتُ الخريطة جانبًا وربما مسحتُها من ذاكرتي وربما وضعتُها في الحَجْرِ الصِّحِّيِّ كي لا تُفَيْرِسَ قدميَّ الآن وتُدْخِلَني بيتَ أحدٍ يضربُني بالنار، أو تسير بي على طريقِ شخصٍ مُطَارَدٍ فيصوِّب عليَّ النارَ مِنْ على بُعد عشرات أو مئات الأمتار.

وضعتُ الطريقَ الرئيسيَّ نصبَ عينيَّ تحت ضوء قمرٍ لا يسطع ولا يختفي وأعمدةِ إنارةٍ ذات مصابيح كأنها تقول لك إنها بذرةُ نورٍ لا أكثر وإن الجفاف طالَ ولم يعد هناك نهر أو مطر، وكثير من الأعمدة نقرَ الطيرُ بذورَها، أو عبثَ الأطفالُ معها بالطوب والحجارة، أو سطا اللصوص عليها أو...

لم يكن الطريق الرئيسي على خارطتي القديمة أو الحديثة، ولا أعرف إلى أين يوصل. فمن الواضح من اتساعه النسبي، فعرضه على الأقل خمسة أمتار ولا يُقارن بالطرق القديمة التي لا يتجاوز عرضُها مترًا أو مترين – من الواضح أنه طريق جديد ويربط بين البلدة وبلدات أخرى، بالرغم من أنني أدرك أن بَعْدَ بلدتنا لا توجد سوى المقابر

وبعدها الصحراء. وربما هو الطريق الرئيسي القديم، فالترعة الوحيدة ها هي بجانبه، ولا توجد ترعة غيرها، لكنه تم رصفه وتم الاستيلاء أيضا على جانب من الترعة وجانب من الأرض لتوسيع الطريق مترًا من جانب ومترًا من الجانب الآخر. أعرف أيضا أن الخضرة انتشرتْ في تلك الصحراء بعد المقابر بشكل كبير، وكنتُ أسير على عكس اتجاه البلدات الأخرى.

لم يكن المشهدُ ينقصه سوى تلك الكلاب التي لا أعرفُ كيف أتعاملُ معها. فبالرغم من أن كل الحيوانات أصدقائي، كانتِ الكلابُ تقفز عليّ من جانب الطريق كأنها لا تُبصرُ بيني وبينها سوى العداوة، ولم يستطع أبي ذات مرة أن يحتمل تحرُّشَ كلبٍ كاد يأكلني فقذفه بطلقة من بندقيته القديمة أردتْه قتيلا بعد عواء بصوت ممطوط لم يستمر...

***

لا أعرف لماذا تداخل هذان الحدثان؛ هل لأن شهر أغسطس يجمعهما؟ يتراءى لي الآن كما لو أنني سجَّلتُ هذا المقطع الصوتي بعد اكتمال هروبي ونجاتي، بعد أن صرتُ ذِكرًا مَذْكُورًا، بدلا من أن أصير نَسْيًا مَنْسِيًّا، وبعد أن اضطررتُ لأن أعود للجبّانة دون أن أدخل جهينة، وكأنني أحسستُ بأنني لا بدَّ أن أسجّله بعد أن أنساني إياه هول الموقف! من أنا؟ ولماذا تتداخل الأحداث والأزمنة هكذا كأن رأسي ذاكرة احتياطية كي لا يضيعَ كلُّ شيء؟

هما حدثانِ. الحدث الأول هو ذكرى وفاة نجيب محفوظ، الذي أعرف أنه في الحقيقة ذكرى ميلاده وأنها في ديسمبر وليست في أغسطس، حيث يذهب مجموعة من أصدقائه الذين أعرف بعضهم إلى مقبرته للاحتفال بذكراه والاطمئنان عليه أو طمأنته على أنه في القلب وأن الخناجر الحقيقية أو المجازية التي تطعن رقبته لا أثر لها. والحدث الثاني هو ذكرى قتل ابن خالي اختناقًا على يد بعض رجال

الشرطة، ذكرى فجور ما يُعرف بحادث عربة الترحيلات حيث أطلق بعض رجال الشرطة قنابل الغاز على المُرَحَّلين داخل عربة الترحيلات فماتوا اختناقًا. أعرف أن موعد هذه الذكرى لم يحل بعد ولم يمر عليه عام كامل. وما تداخل أيضا أنني أدرك أن مدفنه كان في الجيزة، لكنني أراه الآن في جهينة - بلدته وبلدتي بسوهاج - ويبدو أننا - من نحن؟ لا أعرف بالضبط - نظَّمنا حدثا على الفيس بوك لمحبيه وأصدقائه والمتعاطفين معه ومع قضيته، مع أنني أدرك تماما أن الكل بدؤوا يخشون أن يظهروا في أي مناسبة من هذا القبيل، وأدرك تماما أنني أتعاطف مع موت ابن خالي ولا أقبل سلوكه الذي أوصله إلى هذه الحالة، ولن أخوض الآن في سبب المجازر ولا في التمثيل الذي صاحَبَها، لأنني اعتزلتُ كلَّ شيء بعد أن هربتُ من سراديب مكاتب الإرشاد التي كنتُ مُحْتَجَزًا فيها.

بدا المشهد بسيطًا جدًّا: مقابر قروية بلا أسوار وبلا حدود. رمال ممتدة هنا وهناك، وأكوام من الرمال تعلوها بعض الأحجار أو مبنية بالطوب غير المحروق. قبور صغيرة تتناثر أو تزدحم هنا وهناك. ولاحظتُ أن كثيرين من أهل بلدتي قد حضروا - أكثر بكثير ممن كانوا قد أعلنوا من قبل على الفيس بوك بأنهم سينضمون إلى إحياء هذه الذكرى. استغربتُ الأمر، إذ أن الكثيرين من أهل البلدة كانوا يتخوَّفون من مجرد استلام جثة ابن خالي من مشرحة زينهم خوفًا من أن يتعقَّبَ أمنُ الدولة كل المشاركين في تشييع جنازته، وبالتالي استبعدوا فكرة أن يُدفن في جهينة أصلا، ولولا إصرار البعض - ومنهم أنا - على ضرورة دفنه لكانوا قد تركوه في المشرحة ضمن المجهولين.

نظرتُ نظرة غير راضية إلى نفسي؛ فلقد كنتُ من متبلدي المشاعر ساعة معرفتي بالخبر من الجرائد الإلكترونية قبل أي أحد من البلدة، ولم أكن أعرف بماذا أحس، وهل عليَّ أن أحزن لمقتل ابن خالي وأتناسى

أي شيء آخر؟ أم أصير متبلِّدًا أمام موت شخص قُتل لأنه حاول الهروب من العربة حسب الرواية الرسمية أو لأنه كان في مكان مشبوه ولم يستجب لمكبرات الصوت التي تنادي على المتواجدين فيه بالخروج الآمن. روايات كثيرة وأقوال متداخلة، وما تأكد في وسطها أنني كنت لا أحس بشيء ساعتها، ولكنني رفضتُ فكرة عدم استلام جثته وأصررتُ على أن يذهب أهله وأنا معهم لاستلامه ودفنه كما ينبغي لميت أن يُعَامَل.

وها أنا بعد خروجي من شاشة التليفزيون وشاشة الجرائد الإلكترونية أراه يتراءى على الطريق، أو تتشكل الأحداثُ وسط هذه الغيطان التي لا أعرف كيف استحضرتِ الجبّانةَ ونقلتْها إلى هنا، فأنا لم أصل إلى الجبّانة بعد وما زلتُ وسط الغيطان، وها هي الأحداث تبدو في الجبانة، وأدرك أنها جبّانة تختلف عن تلك الجبّانة التي أعرفها موجودة غرب جهينة، وفي نفس الوقت تظهر لي على أنها الجبانة نفسها...

أراه، وعليَّ أن أحيي ذكراه كما ينبغي بالرغم من أنني أدرك أنها لم يَئِنْ أوانُها بعد. أرى وجوها أعرفها هنا وهناك، ووجوها أكثر لا أعرفها، لكن ملامحها تشي بأنها من البلدة ومن البلدات المجاورة. أبتسمُ بالرغم من صرامة المشهد وأقول لنفسي:

- هذا حدثٌ فارقٌ في تاريخ بلدة أو مدينة صغيرة، حدثٌ يجتمع فيه الناس على هدف واحد تكون أساسه دعوة على الفيسبوك.

ولم أرَ في وجوه الناس خوفًا أو في عيونهم توجُّسًا.

تغيَّر المشهد قليلا ووجدتُ مقابرَ ذات أسوار. في البداية كان سورًا واحدًا وبداخله امتداد لا أعرف إن كان نهائيًا أم لا نهائي، بالرغم من أنني أعرف جغرافية المكان جيِّدًا، وأدركُ نهاية الفراغ بالبيوت جهة الشرق وبالأراضي المستصلحة من جهة الغرب. امتداد قد يحس فيه

المـرء بالضيـاع، وفي الوقـت ذاتـه قـد يحـس بأنـه في بيتـه، كأنَّ الضيـاعَ بيـتٌ وكأنَّ البيـتَ لانهائيَّـةٌ، سـكنٌ، وربمـا لهـذا السـبب أطلقـوا عـلى المـوتى «سـكان القبـور». هـل أطلقوهـا عـلى المـوتى أم عـلى الذيـن بـلا مـأوى في الحيـاة فاضطـروا لأن يجـاوروا المـوتى ويقلقـوا راحتهـم أو يسـكنوا مكانًـا لا يطمئنهـم، ولكنهـم يتحملـون مخاوفهـم بـدلًا مـن التـشرُّدِ في الشـوارع وقيـام البلديَّـات المتعاقبـة بإخلائهـم إلى السـجون وإخراجهـم ليعـودوا إلى السـجون أو المقابـر مـرة أخـرى وهكـذا؟

بـدا تدريجيًّـا كأن هنـاك معـالمَ للمـكان، كأن هـذا البنـاء داخـل السـور قـد تحـوَّلَ إلى مـا يشـبه الشُّـقَقَ أو الحَـوْزَاتِ، لكنهـا ذات بنـاء خـاص: صـف حمامـات صغـير مفتـوح الأبـواب، حمامـات بلديـة حجـم الواحـد منهـا لا يزيـد عـن حجـم البـاب الـذي يغلقـه، وباقـي المـكان مقسَّـم إلى مـا يشـبه الغـرف الطوليـة. أعـرف أننـي، في هـذه الصـور التـي تـتراءى لي، مُنَظِّـمُ هـذا الحـدث أو عـلى الأقـل مـن المبادريـن بـه، أو هكـذا يقـول منطـق الصـور التـي تـتراءى، بالرغـم مـن أننـي أدرك أننـي وحـدي وسـط الغيطـان أهـرول عـلى طـرق لا تنتهـي وكأن المـكان كلـما خطـوتُ خطـوة عليـه يـزداد اتِّسـاعًا وابتعـادًا وامتـدادًا، كأن الحركـة لا تولِّـدُ إلا الضيـاعَ في هـذا المـكان الأقـرب إلى الفنتازيـا والعبثيـة بالرغـم مـن أننـي أدرك أنـه مـكان واقعـي في بلـدتي التـي أظـن أننـي أعرفهـا جيـدا الآن، مـع أننـي متأكـد مـن أننـي كنـتُ أعرفهـا بـكل تفاصيلهـا معرفـة وثيقـة مـن قبـل. ولا أدري لمـاذا يتحـوَّلُ التأكُّـدُ إلى ظـنٍّ!!

وبالرغـم مـن ذلـك، كان هنـاك مـا يشـبه المُفَتِّـش أو الـذي يسـتلم التذاكـر أو مـا شـابه ذلـك. فأدركـتُ أننـي يجـب عـليَّ أن أُبْـرِزَ تذكـرة الدخـول. وعرفـتُ أيضـا أن هنـاك أربعـة أنـواع مـن الاشـتراكات – أي اشـتراكات في هـذا المـكان؟ لسـت أدري، لكـن يبـدو أن الصـور كان لهـا منطقهـا الخـاص، وهـا هـي الاشـتراكات انقسـمت إلى أربعـة أنـواع، فلقـد

كان كل اشتراك له شكلان، في المقاسات؟ في الأطوال؟ لا أعرف بالضبط، لكنني فهمتُ أن هناك أربعة أحوال، كيف تحولت الاشتراكات إلى أحوال؟ لست أدري أيضا. وتنقسم هذه الأحوال إلى نوعين من التذاكر أو الاشتراكات أو ما شابه ذلك. وما علاقة ذلك بانقسام الكوب إلى أربعة أكواب، وانقسام كل كوب منها إلى أربعة أكواب؟ وما دلالة الرقم أربعة هنا ودلالته فيما فعله إخوتي؟ هل كان الضياع سمةً من سمات الفضاء أم البيوت أم المقابر؟ كأن الحكاية بلا ذاكرة، والصورة التي تمضي لا تعود ولا تستطيع أن تستحضرها في ذهنك لتربط معناها بمعنى ما هو ماثل أمامك.

كنا في البداية أو في الوسط. لا أعرف على وجه اليقين. كان هناك بجانب الحمامات التي لا أعرف لماذا كانت مخصصة للرجال.... ماذا كان هناك؟ ها هي الصورة تلاشت وأخفت باقي الجملة أو العبارة معها. بحثنا عن حمامات للنساء. لم نجد شيئا. قالت زوجتي – ولم تكن بحاجة إلى قضاء حاجتها في ذلك الوقت – وهي تشير بيدها إلى مساحة لا أعرف إن كانت مواجهة لحمامات الرجال أم لا، ولكنها لها نفس التقسيم كأنها كانت مخصصة لبناء حمامات مماثلة ولكن أحدا لم يفكر في إتمام بنائها.

ماذا قالت زوجتي؟ هل تغيرت الصورة هنا أيضا أم أن مَن يقوم بالمونتاج عبثيٌّ إلى حدِّ السَّفَهِ؟ ربما يعود كلامُها في صورة أخرى. في الصورة الحالية، تشد زوجتي ستارة ما، ولا أعرف إن كانت هذه الستارة موجودة من قبل أم أن زوجتي وضعتْها وأغلقت المكان تماما وقالت:

- نبني هنا حمامات للنساء، على الأقل سنستخدم الستارة مؤقتا إلى أن نبني شيئا.

كانت الستارة مرتفعة عن الأرض قليلا بحيث يظهر كعب السيدة

التي تدخل هذه الحمامات ولا أعرف إن كانت هناك مياه أم لا. هل هذا وقت مناسب للضحك؟ وهل هذه قضية للتأمل أصلا؟ أم أننا تم استدراجنا إلى هناك كأننا انخرطنا في حدث أو نهاية مفتوحة أو باب ينفتح على الخواء. الخواء أم الخلاء؟

وفي الوقت ذاته تغير المشهد لأظل أنا وزوجتي وابني وبعض الأصدقاء في الخواء، وفي ذات اللقطة أرقد أنا على سرير في غرفة فسيحة داخل المقبرة التي يُدفن فيها ابن خالي في جهينة وليس في الجيزة. كنتُ مستيقظا ونائما في نفس الوقت. وكان محمود ابن خالي الذي هو ابن عم جمال ابن خالي الميت نائما بجواري، وكانت زوجتي وبعض النساء يجهِّزْن شيئا أو يقمن بمراسم معينة خاصة بشيء لا أعرفه، وربما أعرفه ولا أذكره، وربما كان من يقوم بالمونتاج يخفي ما يقمن به.

دخل صديق لي يعرفني ويعرف عائلتي، ولكنه كان في اللقطة أصغر سنًّا، أو أكبر من تاريخ معرفتي به، أي أنه كان على حالة تسبق معرفتي به، وفي اللحظة ذاتها أدركُ أنني أنا وهو نعمل سويا في مكان ما بالخليج. كان يحمل حقيبة منتفخة ربما بالكتب أو الأوراق، أو ربما كان بها «غيار» له، فيبدو أنه على سفر وكان يمسك في يده بساندويتش.

استغربتُ منظره: فيبدو كأنه في التوقيت الحالي، وفي نفس الوقت كأنه كما كنت أراه منذ عشر سنوات في مكان عملنا سويا في مصر ولم تتوثق معرفتي به حينذاك. كان مرهَقًا ويأكل السندويتش. وكان يراني أنا نائما ويرى أحدا نائما بجانبي لم يعرفه ليكتشف أنه محمود زميله في العمل أيضا ويعرفه جيدا. قال لي:

- ناولني سيجارة من العلبة التي هناك.

اتضح أنها بجانب السرير الذي كان عاليا وذا أعمدة كأنه سرير قديم، وفي الوقت ذاته كان واطئا كأنه بلا أقدام كسرير حديث. أدركتُ

أن السريـر بجانبـه كومودينـو وأن صديقـي عبـد الحميـد هـذا صاحـبٌ للمـكان، عـلى الأقـل كان يتـصرف كأنـه صاحـب المـكان، وأن هـذا السريـر سريـره وهـو ليـس ضيفًـا قادمًـا مـن بلـدة بعيـدة إلى جهينـة التـي كان في الصـورة السـابقة يراهـا لأول مـرة. أعـرف أنـه لا يدخـن السـجائر وأنـه توقـف أيضـا عـن تدخـين الشيشـة ولا يدخنهـا إلا عندمـا يجـيء ليـزورني في تلـك المدينـة التـي نسـكن فيهـا خـارج مـصر، كنـتُ أراهـا «تلـك المدينـة» في الصـور أمامـي بالرغـم مـن أنهـا «هـذه المدينـة» التـي أحـس بهـا أيضـا: كيـف يتجـاور الإحساسـان المتناقضـين؟ كيـف أراهـا «هـذه المدينـة» و«تلـك المدينـة» في نفـس الوقـت، وكيـف أرى مـا في الصـور يـدور فيهـا وأنـا بـين هـذه الغيطـان التـي تبعـد عـن هذه/تلـك المدينـة ألـف كيلومـتر عـلى الأقـل؟ ومتـى سـافرتُ أنـا خـارج مـصر أصـلا؟ أم أن منطـق الحـدث الـذي لا أعرفـه يقـول بأننـي لا بـد أن أكـون موجـودًا خـارج مـصر؟ أم أن مـصر هـي القاهـرة وأنـا أسـكن في الجيـزة؟ وإذا كان الأمـر كذلـك، فمـن المفـترض أننـي ألتقـي الدكتـور عبـد الحميـد في السـويس حيـث نعمـل سـويًّا؟ ولكـن السـويس خـارج «مـصر» أيضـا بمعنـى القاهـرة؟ لكننـي أنـا شـخصيا لا أسـتخدم كلمـة «مـصر» للـكلام عـن القاهـرة؟ مـا كل هـذا التداخـل؟!!

لا أدري إن كنـتُ مـددتُ لـه سـيجارة أم لا، لكننـي فكـرت سـاعتها أن زوجتـي لـن تتأخـر عـن أن تشـعل له الفحـم وتجعل ابنـي يقدم له الشيشـة لتعـود هـي إلى صفـوف النسـاء وتكمـل مـا لا أدري مـاذا يفعلنـه. لم يكـنّ يجهِّـزن شـيئا. وكنـتُ في حالـة لا تسـاوي الجـوع ولا تسـاوي الشـبع، كأننـي لا أعـرف مـا هـو الأكل أصـلا وأسـتغنِي عـن كل مـا يطلقـون عليـه «مُقَوِّمَات الحيـاة»، وفي الوقـت ذاتـه – كي لا يجـيء مفـسِّرٌ متـسرِّع ويقـول إننـي ميت – لم أكـن أحـس بالمـوت. كنـتُ واعيًـا بـكل شيء وكنـتُ أسـتريح لحظـة، ربمـا لأصطـاد هـذه الحكايـة التـي تسـاعدني في التخفـف مـن إحسـاسي بالفـزع وسـط هـذه الغيطـان التـي أوشـكتْ أن تتحـول إلى أشـباح حقيقيـة.

تغيَّر المشهد أو عاد إلى المشهد السابق عندما كنتُ أنا وزوجتي وابني نقف عند المكان الذي اقترحنا أن يكون حمَّامًا للسيدات. أراها الآن «اقترحنا» بالرغم من أنني أذكر أن زوجتي هي التي اقترحتْ ذلك. ولا نعرف إن كنا خرجنا من باب أم أن المكان تحوَّل فجأة إلى خلاء في ذلك الوقت. كنا نتأمل الوضع. وسمعتُ ابني الصغير يقول:

- من أنتَ؟ من أنت؟

قالها مرتين واختفى الصوت واختفى الجسد واختفت كل آثار «يحيى» ابني. كان الجو نهارًا، لكن بمجرد أن كرر يحيى السؤال انقلب الجو إلى ظلام دامس. أسرعتُ نحو الموضع الذي كانت زوجتي تقول إنه يصلح لأن يكون حمَّامًا للسيدات، ولكنني اصطدمتُ بجدار يبدو أنه أُقيمَ على عَجَلٍ. وعندما دققتُ بيدي عليه تبيَّنتُ أنه في الغالب عبارة عن أبواب ألوميتال مقامة في صف حمامات بجانب بعضها البعض أو في صف أية أبنية مقامة بجانب بعضها البعض. لكن المسافة الصغيرة بين الباب والباب تقول بأنها حمامات، فلقد كان الباب يتأرجح أو يدخل قليلا من أثر الدق ثم يعود كأنه مُغْلَقٌ بترباس من الداخل. لم يكن أي باب يريد أن ينفتح. أخذتُ أدق على كل الأبواب، صارخًا في هستيرية. وفجأة انفتح باب دون أن أستطيع أن أرى شيئًا. وما أن مددتُ يدي لأتحسس ما بداخل هذا الظلام حتى وجدتُ يدًا تريد أن تسحبني بقوة للداخل في صمتٍ كأنها ستوقعني في هاوية لا أعرف جدواها بعد كل الطبول التي دَقَّتْ على الرؤوس، أو كأنها ستسحبني إلى موضع أو مكان ما كي تزداد سوداوية الوضع كله لأنني ربطتُ بين الأبواب المغلقة للتو والظلام والأيدي التي تسحبني وابني الذي تم اختطافه، كأن اختطافه عقاب لي على أنني فكرت في إحياء ذكرى جمال ابن خالي الذي قتله غباء أناس لا يعرفون الأمن، فتراجعتُ محاوِلًا أن أسترشد بصوت زوجتي التي كانت هي الأخرى ضائعة مثلي في هذا الخلاء والخواء وبراقش التي لا تتعلم درسًا ولا تعي شيئًا.

ناديتُ على ابني:

- يا يحيى. أين أنتَ يا يحيى؟

لم أسمع صوتًا في البداية، ولكنني عندما كررتُ النداء، يبدو أنه سمعني وردّ عليّ:

- أنا هنا يا بابا.

سألته:

- في أي مكان بالضبط. صِفْ لي المكان حولك.

قال لي:

- لا أعرف يا بابا. لا يوجد شيء حولي. خطفني رجل بذقن.

استغفرتُ الله العظيم وسألتُ يحيى:

- هل قال لك شيئًا؟ هل طلب منك أن تبلّغني بشيء؟

قال لي:

- شَتَمَكَ يا بابا. وقال إنك تحتفل برجل اسمه نجيب محفوظ.

قلتُ له:

- لا تقلق يا حبيبي. كلِّمْني من هاتفك وخلِّ الرجل يكلّمني لأتفاهم معه.

بكى وقال:

- أنا آسف يا بابا. أخذ منّي الهاتف ومشى.

قلتُ له:

- سأتصل به. لا تقلق. سأعرف منه مكانك حالا.

اتصلتُ على هاتف يحيى. رنين جرس متواصل دون أن يردَّ أحدٌ. صرختُ. ردَّ عليّ صوت زوجتي:

- الحقْ يا راوي، يحيى مربوط في الحمَّام.

جريتُ نحو الحمّامات. وفككتُ الحبل المقيّد به يحيى. واحتضنتُه أنا وزوجتي. قال لي:

- أنا آسف يا بابا. كان أقوى منّي. خذ هذا الكتاب. أعطاه لي ذلك الرجل وقال لي: قُلْ لأبيك: خَلِّ نجيب محفوظ ينفعك.

كانت رواية «يوم مقتل الزعيم»، وكانت عليها آثار براز، وبعد الغلاف مباشرة بعض الشَّعَر المقصوص من ذقن الرجل الذي اختطف يحيى في الغالب. قلتُ ليحيى ونحن نخرج به:

- سلامتك يا حبيبي. لا تقلق. نحن في الجبَّانة الآن.

انتقلَ المشهدُ إلى الغرفة والمقبرة. وكنا نقرأ بعض الآيات القرآنية ونختمها بالفاتحة. ضبط أحدُ الصحفيين الكاميرا الخاصة به ليلتقط بعض الصور. وفجأة أسرع نحوه محمود ابن خالي وخطف منه الكاميرا، قائلا:

- عاداتنا وتقاليدنا لا تسمح بأن نلتقط الصور عند المقابر ولا في المناسبات. لا يمكن أن نكشف أمورنا للصحافة.

لا أدري لماذا فعل ذلك، فأنا شخصيا لديّ الكثير من الصور التي التقطناها لي ولزوجتي وأولادي عند قبر أبي. وصور زفافي نشرَها المرحومُ فهد والأستاذة إيفون المسؤولة عن صفحة مناسبات في ملحق بجريدة الجمهورية. ولا علاقة للعادات والتقاليد بأي شيء من هذا القبيل. بحثتُ عن عبد الحميد، لم أجده. دخلتُ إلى الغرفة، وجدته جالسا يدخّن الشيشة، سألته:

- لماذا لم تُحْيِ الذكرى معهم؟

قال لي:

- أنا في حالي، ولا علاقة لي بالسياسة. جئتُ فقط لأستريح على الطريق وأدخِّنَ معك الشيشة. أنتم مثقّفون مع بعضكم البعض، وعلماء النفس يقولون...

وضحك. ضحكتُ بالرغم من أن الموقف لا يحتمل. فهو متخصص في علم النفس. وكنتُ أتكلم معه من قبل وفي وسط كلامي قلتُ له:

«علماء النفس يقولون...» وذكرتُ له رأي علم النفس في الموضوع الذي كنا نتكلم فيه، فضحك ساعتها وقال:

- هل أنا كيس جوّافة؟

ضحكتُ وقلتُ له:

- لا سمح الله يا دكتور.

صمتُّ قليلا وقلتُ له:

- لكن يا دكتور لم أعرف أنك بخيل. معك كل هذه الجوافة ولا تعطيني واحدة؟!!

طلبتُ منه أن يخرج معي إلى الرجال، فسألني:

- هل انصرف الصحفيون؟

قلتُ له:

- لا أعرف، ولكن الدكتور محمود منعهم من التصوير.

ابتسم وسحب نفسًا طويلا من الشيشة وقال:

- يمكننا الآن أن نخرج كي نقوم بالواجب مع أنني لا أحبُّ كلامَ المثقّفين. هيا بنا.

قلتُ له ضاحكًا:

- اعتبرْهم أكياس جوّافة.

لم يضحك، وقال لي:

- احترمْ حُرمة المقابر يا غالي. ألم أقل لك إنني لا أحبُّ كلامَ المثقّفين؟

حيّرني كلامه، ولكنني لم أشأ أن أشغل نفسي بالعلاقة بين احترام حرمة الموتى وكلام المثقّفين، ووجدتُني أقول له:

- عندك حق. أنت كلامك صح. هيا بنا.

نظر إليَّ نظرة طويلة وقال:

- نحن تركنا «هيّا» منذ دقائق. لماذا تتلكأ في الذهاب وأنتَ الذي دعوتَني لنذهب إلى الرجال؟

لا أدري لماذا تركتُه وأسرعتُ مبتعدًا. أحسستُ أن زوجتي في خطر. وعندما وصلتُ إلى خارج السور الذي بعد الحمامات، وجدتُ أشخاصًا بسيوف يقفون عند السور، وفي الغالب بينهم الذي خطف ابني يحيى. سألتُهم:

- مَن فيكم الذي قيّد ابني وأعطاه رواية «يوم قتل الزعيم» ليوصلها لي؟

نظروا إليّ نظرة تحدٍّ وقالوا جميعا:

- نحن الذين فعلنا، هل لديك مانع؟

صمتوا قليلا، ثم أكملوا كلامهم:

- أم عندك عُذْرٌ شَرْعيّ؟!

وضحكوا جميعًا ضحكة أحسستُ بأنها مثل الضحكات الشريرة في الأفلام. ترددتُ ما بين الإقدام والتراجع، وقررتُ أن أقف في مكاني دون أن يصدر عنّي ما ينم عن معاداتهم، وقلتُ لهم:

- لا، ليس لدي مانع ولا عذر. ولكن هل أنتم من جهينة؟

ضحكوا إلا واحد منهم تجهّم تماما، ونظر إليهم نظرة بترتْ ضحكاتِهم، فانحنوا للوراء ومدوا أياديهم للوراء أيضا، عكس الانحناء للأمام وتحريك اليد للأمام ولأسفل كعلامة على الاحترام أو التقدير أو التحية أو إفساح المجال لشخص كبير في المقام ليقوم بشيء ما أو يقول كلامًا ما. أمال الذي يبدو أنه كبيرهم رأسه نحو اليمين، ويبدو أنه فعل ذلك كردٍّ على لغة أجسامهم. ثم قال لي:

- ألا تذكرنا يا عبيط؟ لا تغضب هكذا. عليك أن تستمع لكلامي دون أن يتكلم جسمك هكذا. بالنسبة لجهينة، فهذه نكتة بائخة. وأعرف أنك تقصد الاستهزاء بقولك إننا من جهينة.

وأخرجَ خريطةً للكرة الأرضية من جيبه وأراني إياها. نظرتُ فيها، وجدتُ أنها هي نفسها الكرة الأرضية ولكن ملامحها متغيّرة، وكأنها

خلت من الدول وصارت دولة واحدة ذات تقسيمات غريبة. ثم أعاد الخريطة إلى جيبه وقال وهو يشير إلى جيبه:

- نحن هنا.

سألتُه وأنا أرسم على وجهي ملامح التأدُّب:

- هل تقصد أنتم من «هنا»؟

وأشرتُ إلى الخريطة التي في جيبه. قال لي:

- قلتُ لك من قبل إنك عبيط. واخرجْ من رأسِك ما فهمتَه ساعتَها على أن العبط نقيض الشيخوخة. أنا أخاطبك على قدر عقلك إن كان عندك عقل. نحن هنا وهنا نحن. كلامي واضح، فلا تؤوِّلْه ولا تفسِّرْه.

قلتُ له ببرود شديد:

- لم تقل لي من قبل إنني عبيط.

قال لي بتحدٍّ:

- يشهد عليك الكفن يا مزوِّر ومارق وناكر للجميل.

قلتُ له:

- هل يمكننا أن نتفاهم بالعقل؟

ضحك وأشار إلى الملتفِّين حوله فضحكوا أيضا، وقال:

- العقل مضلِّل. هل هناك إنسان مؤمن يزوّر التاريخ؟

قلتُ له ولم أستطع أن أتحكّم في غضبي:

- أي تاريخ ذلك الذي تقول إنّني زوَّرْتُه؟

نظر إلى رفاقه وقال:

- شوفوا الصفاقة يا رجال. بعد أن سرق أكفان الأطفال مع أننا أكرمناه عندما أوقَفَنا وأجبنا على كل استفساراته، وطمأناه وكان هاربًا، وفسّحناه على النعش وكان مكتئبًا، ويجيء الآن ويحتفل بنجيب محفوظ!!

قلتُ له لكي أقلب عليه منطق كلامه ذاته:

- ولكنني أُحيي ذكرى ابن خالي الذي قُتِلَ بسببكم!

بهتتْ ملامحُ وجهِه قليلا، ولكنه سرعان ما استعاد صرامته وقال:

- لم نضربه على يده ونطلب منه الذهاب إلى بذرة التاريخ الجديد.

ولم يعطني فرصة للردِّ، فلقد استداروا جميعا كأنني غير موجود. وأخذوا يبنون بالحجارة غرفة صغيرة مثل حجم الحمامات التي رأيتُها من قبل في الجبانة. وتوقفوا عندما وصل الجدار إلى ارتفاع متر تقريبا، مع أن هناك المزيد من الحجارة التي يمكنها أن تكمل بناء الغرفة. ووجدتهم يلصقون غلاف رواية «اللص والكلاب» وغلاف رواية «يوم قتل الزعيم» وغلاف رواية «أولاد حارتنا» بجدران الغرفة ولكنهم يطمسون الكلمة الأولى من غلاف كل رواية. قال كبيرهم:

- لا بد أنه سيهرب إلى هنا وسيختبئ كالكلب في هذه الغرفة. وساعتها سننقضُّ عليه انقضاض رجل واحد ويخرجُ الجبلاوي ليقص رأسه بهذا السيف. وستكون الشرطة شرطتنا، وسيكون القضاء قضاءنا، وسيكون الجيش جيشنا. وإلى أن يأتي ذلك اليوم، علينا...

وتوقَّفَ عن الكلام وكأنه يراني لأول مرة. ووجدتُهم يتحركون نحوي بحركات تمثيلية بطيئة مثل تلك الحركات التي كان يقوم بها إخوتي. ففررتُ منهم، والغريب أنهم لم يلحقوا بي وإنما دوّت ضحكاتهم عالية في أرجاء الجبّانة.

ولكنني عندما عدتُ إلى المتجمعين لم أجد أحدًا، ووجدت لافتة معلقة مكتوب عليها: «المُولِد انْفَضَّ». ووجدت زوجتي ويحيى جالسين في ركن الغرفة. سألتهما:

- ما الذي يجلسكما هكذا؟

قالت لي زوجتي:

- أين كنتَ؟ ولماذا تركتَنا لأولئك الكلاب؟ لو كان في سيارتهم مكان لأخذونا أسرى. لكن ربّنا سَتَرَ عندما سمعوا صوتَ سيارة شرطة بعيدة.

ربنـا يحفظهـم، سـيارة الشرطـة وكل الشرطـة دنيـا وآخـرة.

هل كنتُ مُغَيَّبًا؟ كيف لم أشعر بكل ما حدث؟ لم أسمع صوتًا ولم أرَ أحدًا. وهاتفي معي ولم يتصل عليه أي أحد، لا زوجتي، ولا أصدقائي. سألتُ زوجتي بعد أن اعتذرت لها وضممتُها هي ويحيى وجلسنا سويًّا على السرير في الغرفة:

- كيف ومتى حدث كل هذا؟ ولماذا لم تتصلي بي؟

قالت لي وما زالت آثار الرعب بادية في عينيها:

- أخذوا الهواتف من كل الناس. طبّوا علينا بالسيوف وجمّعونا في الساحة هناك.

قلتُ لها:

- كان عدد الناس هنا كبيرًا، فكيف لم يفعلوا شيئا معهم؟

قالت لي وهي تحاول أن تبتسم:

- ألم يقل المتنبي صديقك: «السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ»؟

لم أفهم هذا البيت بهذا المعنى من قبل، ولم أكن أدرك أن المثقفين والصحفيين جبناء إلى هذا الحد. ولكنني تذكرتُ جبني أمام سيوف أولئك الذين يضعون خريطة مشوّهة في جيوبهم، فقلتُ لها:

- المهم أنكما بخير. أين ذهب الباقون؟

قالت لي وهي تضحك:

- جروا جري المُطَّهَر يوم طلوعه على المعاش. ما أن رفع الإرهابيون سيوفهم جرى الجميع هاربين.

سألتُها:

- ولماذا لم تهربي معهم؟

قالت لي بعتاب:

- هل هذا كلام؟ هل أفوتك وأهرب يا حبيبي؟ قلتُ: إما أن نعيش سويًّا أو نموت سويًّا.

***

أيـن أنـتِ يـا راويـة؟ وأيـن يحيـى وحيـاة ونَيْـلَاء؟ كأننـي أراكـم أمامـي الآن، وهـا أنـا أجـري وسـط الغيطـان ولا أعـرف إن كان جريـي جـري المُطَّهَـر يـوم طلوعـه عـلى المعـاش، ولم أسـمع بهـذا التعبـير مـن قبـل إلا عـلى لسـان راويـة، فالتعبـير الأصـلي يخـصُّ الفضيحـة، في مسرحيـة لفـؤاد المهنـدس، «فضيحـة المطّاهـر يـوم طلوعـه عـلى المعـاش»، لكـن مـا معنـى حـال المثقفـين والصحفيـين وهـم يجـرون «جـري المُطَّهَـر يـوم طلوعـه عـلى المعـاش»؟

أفيـقُ عـلى صـوت ذلـك الـذي كانـت معـه الخريطـة المشـوّهة في المقابـر يقـول لي:

- ألم أقل لك: انصرفْ.

أنظر إليه بتحدٍّ كأنني لم أكن خائفا منه منذ دقائق، وأقول له:

- عينك حمراء

يخبئ عينيه ويقول لي كمن تفاجأ:

- هل رأيتَها؟

أقول له:

- نعم رأيتُها ورأيتُكَ؟

يمثّل أنه متفاجئ أيضًا ويقول:

- ألا يظهر عليّ أنني متنكّر؟

أقول له بحدَّة:

- أين ذهبتم بالأطفال؟

يقول لي باستغراب:

- أي أطفال؟

أقول له بسخرية:

- الأطفال الأحياء الذين كنتم تحملونهم على النعوش.

يقول لي وهو يضحك:

- يـا رجـل، هـل صدَّقـتَ؟ كانـت حفلـة تنكُّريَّـة، مثـل تلـك الحفلـة التـي أقمتموهـا أنتـم عـلى المقابـر.

إذن هـو نفسـه الـذي كان مـع الذيـن يحملـون النعـوش. وهـو نفسـه الـذي رأيتُـه في الجبّانـة. والحدثـان حقيقيـان، مـع أننـي لا أجـد أي أثـر لزوجتـي ولا لابنـي ولا لبنتـيّ. أقـول لـه بجديـة تامـة:

- قف عندك.

وأنهـض مـن جلسـتي تحـت الشـجرة عـلى الطريـق، وأمسـك بـه، فيسـتكين لي وهـو يضـع يـده أمـام وجهـه، كأنـه يخـشى أن أضربـه. وأقـول لـه:

- أين هاتف ابني وهاتف زوجتي؟

يقول لي:

- لن تصدّقني إذا قلتُ لك الحقيقة.

أقول له:

- مع أنني لا أصدقك، سأصدقك هذه المرة لوجه الله.

يسألني بجدية تامة:

- هل تعرف الله؟

أقول له بتوبيخ:

- الله ربي، يا فالح.

يقول لي:

- سأقول لك الحقيقة إذن.

أقول له:

- وأنا في انتظارك.

يقول لي وهو يشير بيده للوراء بامتداد الطريق المجاور للترعة:

- أوقفتْني سمكةٌ هناك وأخذتْ منّي كلَّ الهواتفِ.

أقول له:

- قُلْ كلامًا غير هذا.

يقول لي بمسكنة:

- وأنا قلتُ لكم إنك لن تصدقني.

أقول له:

- وأنا آسف على أنني قلتُ لك إنني سأصدّقك هذه المرة. يمكنني أن أصدّق السمكة.

تظهر عينه الحمراء ويقول لي بتهديد:

- ستطلع على المعاش قريبا بعد أن نطاهرك يا بتاع نجيب محفوظ.

تلفت انتباهي كلمة «بتاع» العاميّة التي يستعملها وسط كلامه، ولكنني أتجاهل استعماله لها وأقول له مهدِّدًا:

- سنرى من الذي سيطلع على المعاش.

يقول لي بمسكنة:

- يا بيه، لو على هاتف ابنك وهاتف زوجتك، ها هما. لكن لا توجد فيهما شبكة. يبدو أن زوجتك ذكيّة وبلّغت الشركة ففصلت الخدمة عنهما.

ويرمي الهاتفين تجاهي ويفرُّ هاربًا. أجد نفسي أجري وراءه. أحمد الله أنني جريتُ، فها هو انفجار في الموضع الذي رمى فيه الهاتفين. أجري إلى أن تتقطّع أنفاسي، فأجلس على حافة الطريق وأنا أسمع صدى صوت ذلك الذي يبدو أنه إرهابي:

- يا بتاع نجيب محفوظ، يا بتاع نجيب محفوظ.

الفصل السادس

لو كنتُ مررتُ على هذا الموضع من الطريق في صِباي أو في مقتبل الشباب لكانت القشعريرة انفجرتْ في بدني وألقتني في الترعة بجانبه أو نغزتْ خطاي لأفرَّ بعيدًا. لا يهمُّ أن أرى أو لا أرى، فالخوف إحساس قد ينبع من الخارج ويترسب في البدن أو ينبع من البدن وذكرياته وينعكس على الخارج.

لكنني ها أنا بعد كل هذه السنوات من الانقطاع عن هذا الطريق أمرُّ عليه ولا أحسُّ بخوف ولا برهبة. أجلس على جانبه، كما لو كان طريقًا عاديًّا! هل الرعب الذي رأيتُه ورائي وأنا أجري بعد تفجير الهاتفين محا من داخلي أي رعب آخر؟ هل أضاف رعبًا أكبر في ذاكرتي فتلاشى الرعب القديم؟ يتذكر جلدي القشعريرة، ويشعرُ بالتَّعبِ. تستحثني القشعريرة القديمة لأن أنهض وأواصل الجري لأبتعد عن هذا المكان. وفي الوقت ذاته يستحثُّني جسمي على أن أواصل الجلوس. أحسُّ بأن ماء الترعة البارد في هذا الشتاء يُسرِّب قدرًا من الدفء، كأن الأيام تختلط ببعضها، كأنها تمتزج وكأنني صغير. أجلس على جانب الطريق جهة الغيطان. أنظر للترعة وأتلفَّتُ بامتداد الطريق رجوعًا وبامتداده صعودًا أو خروجًا بنظرة محايدة تكتفي بالتأمل.

- ما الذي رماك على هنا؟

تخيَّلتُ أنني أسأل نفسي أو أن ذاكرتي تستحضر مشهدا قديما أو حتّى مشهدًا مستقبليًّا يتشكل أمام عينيَّ.

- يا أستاذ، ما الذي حدث هناك؟ اعذرني؛ لم أستطع النهوض لكي أشاهد ما حدث. لكنني رأيتُ نيران الانفجار، فما الذي حدث؟

هل أكلّم نفسي دون أن أدري؟ من هذا الذي يتكلّم إذن؟ في المرات

السابقة على طول الطريق من بيتنا حتى هنا، كنتُ أرى من يكلّمني، ولكنني الآن لا أرى أحدًا! هل هذه حيلة جديدة؟ وإذا كانت حيلة جديدة، فما الحيلة القديمة؟

- يا أستاذ، لماذا لا تعبِّرني؟ ألم أسألك؟

تلفَّتُّ بجانبي كأنني أنظر إلى أحد أتحدث معه. لكنني لم أرَ أحدًا. ولم يكن ضوء عامود الإنارة يكشف عن شيء واضح. فأضأتُ كشاف الهاتف بيدي، وعلى ضوئه وجدتُ فقط يدًا تتحرَّك ورأسًا تكاد تكون مثبَّتة في الأسفلت على جانب الطريق.

- لا بدَّ أنك ارتجفتَ. ما الذي رماك إلى هنا؟ لا تخفْ. كل الناس يسرعون خطاهم عندما يمرُّون من هنا ليلًا. قبل أن تصل إلى هنا بقليل، وجدتُ رجلًا يجري، ولكنه لم يكن صامتًا مثل الذي كانوا يجرون طوال تلك السنوات. كان يقول: «يا بتاع نجيب محفوظ». وأنت الوحيد الذي توقفتَ وجلستَ كأنك غريب مثلي.

- لستُ غريبا يا عم.

قلتُها كأنني أنفي عن نفسي تهمة، ولكنني استدركتُ موقفي:

- ولستُ قريبا أيضا.

قلتُها له، وأخذ صوتي يتحشرج وكأن ماءً يقف في منتصف حَلْقِي ينغِّص عليَّ مجرى كلامي.

حاولتِ اليدُ أن تربِّت على جسمي. لكنها لم تستطع أن ترتفع لتلمس كتفي.

- وأنا يا ولدي لستُ هنا ولستُ هناك. ذلك الذي قتلَني حُكم عليه بخمسة وعشرين سنة. ربما مات في السجن وربما سيخرج بعد أيام. وما أن تقاطر دمي ساعة غدره على هذه الطريق قبل أن تصير مُسفلتةً، صار الناس يدهسونني بالأقدام نهارًا لتتفتَّتَ روحي وسط التراب، ويسارعون الخطي ليلا كي يهربوا مني. وهذا الأسفلت اللعين

قصم ظهري (يقولها ضاحكا كأن له ظهرا فعلا)، فلم يوحِّدني بالتربة ولم يصيِّرني أسفلتًا. لم أستطع أن أتحرر كذرات التراب وأتطاير، أو أكون ملتصقًا جامدًا كالإسفلت. ذهب جسدي إلى قبر بدون دمي، وروحي أخذتْها رصاصةٌ، لكنَّها ظلَّتْ معلَّقَةً تحوم فوق الطريق ولا تستطيع أن ترجع للدم أو تذهب مع الجسد المُصَفَّى، فلا أنا غريب ولا أنا قريب. وما عدتُ أسمع صوت السمك في ماء هذه التُّرْعَة، ولا عدتُ آنس بحوارات يتعذر سماعُها على السائرين نياما في هذه القرية الظالم أهلها. الناس يدهسونني بالنهار كأنني صرصار ويفرون مني في الليل كأنني الطاعون. ولكنني منبسط الآن، فلقد سمعتُ منذ ساعة تقريبا سمكةً تقول لي: «خَلِّ بالك يا عم، رجل عينُه حمراء سيفجّر هاتفًا». قلتُ لنفسي: «الهواتف في البيوت، والبيوت بعيدة عن هنا»، مع أنني دعوتُ الله أن يكون هناك بيت بجواري هنا كي ينفجر الهاتف ويحرّرني من الالتصاق بالأسفلت هكذا. وزاد انبساطي عندما وجدتُك تجلس هنا دون خوف. هل أجد معك سيجارة؟

- ثانية أبحث لك يا والدي.

تحشرج صوته وهو يقول:

- كان ابني مثلك. ربما في مثل سنك الآن. عندما كان يقترب من هنا تحمر عيناه، يحمر وجهه ويجري صارخًا، ولا أعرف إن كان رعبًا أم غضبًا. لكنني منذ سنوات لم أعد أراه ولم يعد أحد من أهلي يمر من هنا. يبدو أنهم هاجروا أو كأنهم يخشون أن يتذكروا، فابتعدوا عن مكان التذكر، مكان العجز، الغضب، الاحمرار.

- تفضَّل.

أشعلتُها له ووضعتُها في فمه الذي يكاد يلتصق بالإسفلت على حافة الطريق. سحب نَفَسًا عميقًا. صمتَ طويلا. وعندما انتهى من تدخينها قال لي متأثِّرًا:

- شكرا يا ولدي.

- لا شكر على واجب يا والدي.

- شكرًا على وقوفك بي، على جلوسك، على كلامك، على سيجارتك. فكلامك لامسَ قلبي، بدَّدَ غُربتي. سأتركك الآن وأذهب باحثًا عن جسدي. سنوات وأنا هنا لا أستطيع الانطلاق. يبدو أنني كنتُ في حاجة إلى إنسان يتكلم معي حتى أستطيع الخروج من الخندق بين التراب والأسفلت. سألملم بقايا دمائي أو أنتزعُها من تحت الأسفلت بأن أمصها عبر عظام يدي. بعدها سأذهب باحثا عن جسدي علَّ روحي تودعه وتصعد إلى بارئها بسلام.

اغرورقت عيناي. قاومتُ احتباس الكلام. قلتُ له موصِّيًا:

- أمانة يا والدي تعتذر لمن صعدوا منذ شهور، ومن صعدوا منذ سنة، ومن صعدوا منذ سنتين، ومن صعدوا منذ ثلاث سنوات، ومن صعدوا منذ أربع سنوات، وربما من صعدوا منذ أيام أو أسابيع، فلا أعرف ماذا يحدث الآن مع أني متأكد من أن الدم أصبح مباحًا ومستباحًا إلى حد السفه والفجور والكفر المزخرف بإيمانيات رجال السياسة المتموِّهين. قل لهم: عجزتِ الأيدي، والأرواحُ مُعذَّبةٌ الآن، هنا أو هناك أو هناك أو هناك، كأن الغضب سُكبتْ عليه مياه صَرْفٍ صحِّيٍّ أو مياهُ مَجَارٍ وكأن الاتِّقاد كان فحمًا مغشوشًا لا يطهو إلا لحم الأغنام ولا يطهِّر جسدًا ولا ينظِّف بصيرة ولا يوقد رؤية. قل لهم يا والدي: لا تقنطوا، فالعبيط عبيط، والزعبوط آخرته ناس يأكلون بعضهم البعض. أعذرني يا والدي. هو كلام بن عمّ حديث، لكنني أخشى أن تتقد النار فتأكل الأخضر واليابس، الأحياء والأموات.

قال لي بعتاب:

- ولماذا سيرة النارِ يا ولدي؟ أليست الألفاظ سَعْدًا؟

قلتُ له بأسف:

- معذرة على اللفظ يا والدي. في سلام الله.
قال لي بفرحة:
- في سلام الله يا ولدي.
***

بدأ المشهد كأنني أقف بجانب نافورة في ميدان يتسع قليلا، وهي تقف على الجانب الآخر من النافورة بالميدان. كان بيننا فاصل طويل. كنتُ أرى أنه حُرقة الشمس، خيوط تتقلب كبخار الأجساد، هواء محترق يسير كالسراب.

انقلبَ المشهدُ فجأةً، أو تدريجيًّا أو كان هكذا في الأصل، إلى وقوفنا أمام ثكنة عسكرية أو أمام مبنى مهم جدًّا بالدولة، بينما أنا ما زلتُ واقفا بجانب نافورتي وما زالتْ هي أقرب لباب المؤسسة تحت بهو حرارتها. لم أتبيَّن الوجوه جيدا، لكنني رأيتُ بعض الأشخاص يجْرون بيننا وسط الهواء المحروق كمن يتعذَّبون أو كأن النار تشويهم أو كأنهم يمرُّون بسلام بعد ألمٍ من جهة إلى أخرى فوق حاجز أو اختبار أو أعراف أو صراط أو شيء من هذا القبيل.

كنا نمسك بما يُشبه الحبل، وكنا نلفه فيما بيننا كأننا نلاعب شخصًا يريد أن ينطَّ الحبل. كنا كطفلين صغيرين نلهو بمَنْ يسقط مِنْ على الحبل ونحن نهتف مكرِّرين:
- وِلْ يا وِلْ.

وسرعان ما عَرُضَ الحبلُ وصارتْ به فتحةٌ كبيرةٌ كطاقةٍ يقفز منها متدربو الصَّاعقة عبر النار أو إليها. وكنا ننتقي مَنْ يمر من هذه الطاقة كأننا نلقي به إلى الحجيم. كانت الأجساد التي تمر من الحبل تنفجر كأنها كانت تُخبِّئ أحزمة ناسفة أو سرقت بعض الرصاصات من المعسكر أو استولت على بعض الأسلحة من المُصفَّحة المسروقة التي ألقينا بها في النيل كي لا تدهس الأصوات المطالبة بالماء والهواء والنبت

الحسـن. كنـا نصفِّـر مردِّديـن:

- عـلى نفسـه جنـى، عـلى نفسـه سـقط، بنفسـه هـوى، بنفسـه هلـك. يـا بتـاع المكتـب، عـارف أَجَلَـك فـين؟ يـا بتـاع المكتـب، عـارف أجلـك عـلى يـد مـين؟

عندمـا اسـتهوتنا اللعبـة إلى حـد الانهـماك، تحـوَّل المشـهد فجـأة، وكأن هنـاك مَـنْ قَطَـعَ الحبـلَ أو حـوَّل مسـارَ السـائرين نيامًـا إلى حتفهـم عـلى أيادينـا، وصـفَّ مكانَهـم مـن نريـد لهـم الحيـاة. وزاد مـن اسـتغرابي ومـن اسـتغرابها وقوفنـا عـلى طـرفي النقيـض، أو ليـس عـلى طـرفي النقيـض، بـل وقوفنـا عـلى طرفـين بعيديـن دون نقائـض أو نقائـص أو عبـور.

غمزنـا بأعيننـا عندمـا أبصرنـا حركـة مفاجئـة للبـاب الـذي يقـع في مؤخـرة الميـدان خلفهـا، فنجونـا بأنفسـنا وسـقطت الوجـوه المتسـارعة نحونـا في حفـرة الجحيـم.

انتقـل المشـهد كأننـي أفتـح بـاب مصعـد مـا. أجدهـا بداخلـة كأننـا سـنصعد إلى دورٍ واحـد أو شـقة واحـدة أو السـطوح نفسـها لنشـم قـدرا مـن الهـواء الحُـرِّ ونعـود كأشـباح إلى جحورنـا، أو كمحاربـين إلى صفوفنـا أو كميدانيـين إلى ميداننـا أو كزارعـين إلى أرضنـا. رأيتُنـا خارجـينِ للتـو مـن جحيـم مـا، مـن محرقـة تطهِّـر القلـوب وتحـرق بريـق الذهـب الغافـل. لا أدرى إن كنـتُ رأيتـه غافـلا أم لا، لكنـه كان هنـاك يحـترق. لم يسـتطع النهـوض مـن الحفـرة. رأيتُهـا هاويـةً، ورأيتُنـا واقفـيْنِ نرقـص عـلى وقـع هـواء جديـد، هـواء كان يعـزف موسـيقى بَحْـرٍ بكـر هـادر لم تصاحبـه أنـف مـن قبـل. والغريـب أن آهـةً كانـت تمتـزج بالهـواء وتزيـد مـن سرعـة رقصنـا كأنهـا تحثُّنـا عـلى أن نقتنـص خطـوة إضافيـة قبـل أن ينقطـع جسـر الخطـوات أو يثـور البحـر علينـا.

اختفـى البحـر وظلَّـت الآهـة قرينـة أنفاسـنا. حمـدتُ اللـه عـلى أن يـدي لمسـتْ بابـا عندمـا تحققـتُ مـن الحركـة الحربيّـة للأمـواج الهـادرة

نحونا. ابتسمتْ عندما رأتْني وابتسمتُ عندما دخلتُ المصعد فوجدتُها، دون سابق إنذار وبعيدا عن ثلاثين عاما مضت، مع أننا كنّا سويًّا في اللقطات السابقة. قبَّلتها بشدة وكدت آكل شفتيها التينيتين اللتين تكادان تكون بهما تشققات لا تجعل شفتيها ملساوتين بقدر ما تجعلهما مثيرتين للهضم، ساقيتين للنداء، وفي الوقت ذاته خجولتين في التلبية. احتضنتُها بشدة.

عندما فوجئت بالأشباح في مرآة المصعد، أخرجت نفسي من صدرها ولم أستطع أن أحبس دموعًا تتساقط مني لتثقل على المصعد الذي كاد يتهاوى. ضربتُها على خدها متسائلا. عضضتُ شفتيها وكأنني أريد أن أقتلع طبقات السنين من عليهما وألغي ذلك الفاصل الزمني الطويل. وأخذتُ أضربها بشدة كأنني أعذِّب نفسي على مقصلة الوقت وفي سجون الأيام.

أحسستُ بالدم يتساقط مني. أحسستُ بأنني أصعد وأتهاوى، أتهاوى وأصعد، أحسستُ بأنني جبل وأنني ذرة رمال لا تقوى على الريح، أحسستُ بأنني نهر وأنني أرض بور، أحسستُ بأنني لا أعرف كيف أصِفُ نفسي أو أصف حالتي، وكان صدرُها مناديا، كانت كأنها تحسُّ بكل آلامي، وكان جسمها ينتفض وكأنها كانت تتمنى كل ذلك قبل الفاصل الزمني أو بعد الفاصل الزمني أو أن ننصهر في بوتقة نار الميدان كشعلة تعلو تمثالا جديدا بألوان العَلَمِ. أحسستُ بأنني بدأتُ أتطهَّر في الدموع؛ فهي التي شدَّتْني إلى أن بدأ مطر عيني يهطل على شِبَاكٍ تُراود الضبابَ، ووجدتُني أرتمي في صدرها ووجدتها تضمُّني بشدة. ولم نعبأ بدموع أسالتها قنابل ما أو بمن فتح المصعد ووجدنا هكذا.

ووجدت المشهد ينتقل بنا. ورأيتُنا جثتين ملقاتينِ على أرضية شقة ما، يقف جدارٌ كاملٌ فوقي في شرفة شقة لا يوجد بها أي شيء ولم

تنقسم إلى غرف، ويقف جدار آخر موازٍ له فوق جثتها على شرفة بالجانب الآخر من الشقة، وعيوننا جاحظة نحو بعضها، وفي الصالة بعض الدموع، وبعض نقاط الدم، وضحكات هستيرية تتشفَّى، وعيون تتلصَّص، وسمَّاعات كأنها تلتقط آهة خافتة يقلِّبها هواءُ الشقة على مهلٍ، تلتقطها لتكبِّرها في المدى وتعلن على كل الآذان قنبلة تنفجر. تذكَّرتُ الرجل الميّت منذ 25 سنة تقريبا الذي قابلتُه على الترعة، وشعرتُ بالأمل في أننا أنا وهي سنخرج من تحت الجدارين. وتذكَّرتُ الذي أمام بيتنا أنا وإخوتي، ولستُ أنا وهي، ذلك السور الذي قال إخوتي إنه يريد أن ينقضّ ويريدون أن يقتسموا الكنز الذي تحته، فازداد شعوري بالأمل، ليس بسبب كلام إخوتي، ولكن لأنني ربطتُ بين السور والجدار الذي يريد أن ينقض في القرآن والذي بناه سيدنا الخِضر من جديد، لأن أبوا صاحبيه كانا صالحين. ولا أعرف إن كنتُ صالحًا أم لا، لكنني أحسستُ بأن ألَمَ ضغطِ الجدارينِ عليّ وعليها يقول بأننا نلفظ بعض أنفاسنا، وأنّ تصوراتِنا وأفكارَنا في هذه اللحظة لا بد أن تكون صادقة.

***

لم تستطع الأصوات المتحشرجة أن تمنع إحساسي بالوحدة بعد أن تركني ذلك الصديق المتحشرج الذي لم أكن أعرفه ولكنني التقيتُه على الترعة. كان إحساسي بأنني ساعدتُه على الخروج من الخندق المفروض عليه ما بين التربة والأسفلت إحساسا جميلا، ولكنه فتح نفسي على الصحبة. وفي الوقت ذاته، وجدتُ في الأصوات المتحشرجة الهادرة تشويشا للرؤية وخشيتُ أن نعود إلى التهليل والاحتفال اللذين يجعلاننا لا نلتفتُ إلى الذين يستعدون للركوب هذه المرة، كأن التاريخ لا يعلِّم أحدا، كأن الكأس يمكنه أن يَسْتَلَّكَ من رؤيتك لتشرب منه مرتين وثلاثًا. وظهرت لي رسالة على شاشة ذاكرتي تقول لي:

- انصتْ للهاتف.

استغربتُ الرسالةَ، فالهاتف في يدي، ومنذ أن عثرتُ عليه في جيبي وأنا أسجِّلُ عليه المقاطع الصوتية التي أصف فيها الذي صادفني على طريق الخروج حتى الآن، وأصف أيضا إحساسي به أو هواجسي حياله، وأسجّل عليه أيضا ما أستطيعُ أن أتذكَّرَه. وتذكرتُ أنني أمارس هذه العادة منذ سنوات طويلة وأسجل تاريخي ورؤاي وهواجسي على هاتفي في مقاطع صوتية تطول أو تقصر، مقاطع كأنها أنا على درب لا ينتهي حتى بموتي، لا ينتهي بالضربات التي تلقَّيْتُها على رأسي غدرًا أو حسنَ نيةٍ أو هشاشةَ تآخٍ أو أخوَّةً باطشةً، كأن التاريخ الشخصي أو العائلي أو تاريخَ الأرض والوطن فاقدٌ للذاكرة هو الآخر، وعليك أن تدفع رؤيتَك، مالَك، دمَك، راحتَك، سلامَك في مقابل أناس قلوا أو كثروا يحتكرون كل شيء، يستولون عليك قبل أن يستولوا على ما هو لك.

هاتفي تاريخي، تاريخي أكبر من هاتفي. أين السماعات؟ وجدتها منذ ساعتين مثلا في جيب ملابسي التي فوجئتُ بأنها ملابس شتوية. ليستْ كل عناوين الملفات أو المقاطع تبدأ بـ voice، حيث يوحي هذا الاسم بالصوت البشري والحميمة والبصمة والإصرار على الوجود، فهناك ملفات تبدأ بـ sound وهناك ملفات تبدأ بـ record وهناك ملفات يتم في اسمها اختصار إحدى هاتين الكلمتين ربما كي لا تختلط مع ملفات تحمل نفس الاسم.

هناك أشخاص سربوا ملفات إلى ملفاتي وهاتفي، تداخلوا مع تاريخي. أنا لا أذكر شيئا. كل ما أذكره أنني لم يعد معي هاتف سوى ما أسجل عليه المقاطع التي تبدأ بـ voice، والهاتف الآخر الذي به كشاف إضاءة ربما أحضرتْه لي زوجتي في تلك الكتلة الزمنية التي لا أدري حجمها، وربما أحضره لي أخٌ من أخويَّ اللذين لا يعيشان في هذه البلدة المُسْتَحْوِذُ أهلُها، وربما أحضرتْها أختٌ من أخواتي. لا أستطيع

في حالتي هذه إلا أن أعيش على الاحتمالات ما دمتُ لا أجد الآن من يؤكد لي احتمالا. الهاتف هو كل الأشخاص الآن، هو عائلتي المؤقتة، عائلتي المختارة إجباريًّا، فلأستمعْ له حتى أرى ما الذي قمتُ بتسجيله عليه وما الملفات الغريبة التي نُقِلَتْ إليه...

***

يا راوي، أعرف أنك لا تتعرَّف عليَّ. لا تذكرني ولا تذكر أحدا. أنا راوية زوجتُكَ، بجانبك الآن وبجانبنا أولادنا. آسفة؛ نسيتُ أننا نسجّلُ روايةً. هي رواية يا أبنائي، فلا تقلقوا. معك يا راوي. كثرةُ الغم تولّد الضحك. هل سنترك الغم يميتنا؟! ما يحدث أكبر من أي رواية.

أذكر تلك المرة الوحيدة التي تعرّفتَ فيها عليّ من بين ضباب ذاكرتِك وقلتَ لي بالحرف الواحد:

- لو استغرب أطفالُنا شيئًا، قولي لهم إنني أمثُّل رواية أو أسجّلها أو أكتبها.

وها أنا معك، وبجانبنا أولادنا حياة ونَيْلاء ويحيى. غيّرتُ اسمي واسمَكَ بسهولة، ولا أعرف لماذا صعبَ عليّ تغيير أسماء أطفالنا! هل لأنني لا يمكنني أن أتخيلهم إلا على أنهم أطفالنا؟ لا أعرف. ولا يهم الآن. المهم أنني حاولتُ كثيرا أن آخذك من هنا، أن نعود إلى شقتنا بالجيزة، لكنك ترفض ولا تفصح عن سبب. لا تتذكرنا ولا تتذكر شقتك. فقط تتشبث بهذه الغرفة بالدور الأرضي من البيت الجديد التي كنا نقيم بها عندما ننزل في إجازة بعد أن تركتَ شقتك بالدور العلوي لأخيك ليتزوج فيها وتركتَ هذه الغرفة لأمك بعد أن رفض إخوتك أن تقيم أمُّكَ بالبيت القديم وطردوها من غرفتها هناك.

تتشبث بهذه الغرفة. تتشبث بشجرة التين التي مات تحتها أبوك. تتشبث بالدِّكَّةِ التي بداخل السور وكان أبوك يتنقل بينها وبين شجرة التين قبل وفاته، وهي نفس الدِّكَّة التي كانت أمُّكَ ترقد عليها كَمَدًا

وهَـمًّا ونزيفًـا. تنظـر أنـت لإخوتـك بعـين بلهـاء غائـرة، وأراك تنظـر لي بعـين مفعمـة تريـد أن تقـول أشـياء، لكنهـا تكتفـي بدمعـة تحتبـس فيهـا دون أن تتذكـر شـيئا، دون أن تفتـح المجـال للكلـمات لـكي تعـبر بذاكرتهـا وذاكرتـك إلى بـر الأمـان.

أعـرف أنـك تسـجِّل قصصـك وأشـعارك وخواطـرك ومقاطـع رواياتك وكل إبداعاتـك عـلى برنامـج التسـجيل بالموبايـل، وأعـرف أنـك تسـتمع إلى مـا تسـجله عندمـا تنفـرد بنفسـك أو تجلـس لتسـجله عـلى جهـاز الكمبيوتـر؛ ولذلـك سـجلتُ هـذه المقاطـع لـك، فربمـا عندمـا تسـمع صـوتي مـرة وراء أخـرى تربـط ذاكرتُـكَ بـين نـبرتي وتلـك الكائنـة التـي تختفـي في طياتهـا. أعطيـتُ نقـودا لابـن عمـك كي يشـتري لـك أكلا ويضعـه في الثلاجـة وكي يشـتري مسـحوقا وصابونـا لـكي تغسـل ملابسـك، وشـايا وسُـكَّرًا ومُعَسِّـلا، إلى أن يقـضي اللـه أمـرا كان مفعـولا، إلى أن نلتقـي سـويا فتعـبر الكلـماتُ مـن عينيـك إلى عينـيَّ ومـن عينـيَّ إلى عينيـك دون أن تحتجزهـا ذاكـرةٌ أو تطمسـها في طياتهـا فتضيـع.

***

صـور تتداخـل في رأسي. كلـمات كأن حروفهـا تتعـارك مع بعضهـا البعض. شـخص يقـف في الـبراح أمـام البيت ويشـير بيـده في كل الاتجاهـات ويقول:

- كُلُّ هذا لي.

شخص يقول له:

- ليـس معنـى أنـك تسـمع لـكلام زوجتـك أن تطمـس ضمـيرك، أن تبيـع بيتـا، أو تسـتحوذ عـلى أرض، أن تقطـع رحـما، أن تخـرب بيتـا مـن المفـترض أنـه متماسـك. قـل لزوجتـك إننـا إخـوة وسـنحتكم للـشرع والعـدل

- زوجتـي وهـي حـرة. إن خلعـت ملابسـها وجلسـت عريانـة في هـذه السـاحة المكشـوفة عـلى الطريـق ليـس لأحـد منكـم أن يقـول لهـا كلمـة واحـدة.

- يا أخي هناك أصول. الحياة ليست بلطجة.

- البلطجة أن تأتي الآن وتطالب بحقك. أي حق يا أبا حق؟ الأرض لمن يعيش عليها.

- وهل أنا لو وَجَدْتُ من يعيشون عليها يرحِّبون بي في أرضي كنتُ سأطالب بشيء؟ أشعر بأني غريب على أرضي، لا حقَّ لي ولا أرضَ ولا وجهَ.

- دعك من كلام المسلسلات هذا. أخذتَ نصيبك من الدنيا وزيادة. وتجيء الآن لتأخذ نصيبي.

- ومن قال إنه نصيبك. شرع الله بيننا.

- وشرع الله لا يرضى بأن يعيش أولادك عيشة أحسن من أولادي.

- استغفرْ ربك.

- لم أفعل شيئا لأستغفره.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

تظل الأصوات تدور دون أن تتضح صورة أو يظهر في أفق الذاكرة مشهد ختامي.

***

إلا أمي يا أولاد... أمي. انطلقت العبارة من جذوري محمَّلَةً بكل ثورات الغضب وأخذتْ تدور حولي كبركان لا يعرف الهدوء أو الخمود. أخذتُ أبعده عن أمي وكان جامدًا كأنه لا يحس بأنه فعل شيئًا. كانت الكلمات تتناثر مني بلا توقف:

- مرَّة تشتمها زوجتُكَ، ومرة تضربها أنت وتقف زوجتك تقول لك: «علِّمْها الأدبَ، هذه الست المجنونة»! يا أخي ملعون هذا الأزهر الذي تعلَّمْتَ فيه إذا كان لم يعلّمك الأدب ولم تفهم شرعَ الله حقًّا! هل تحتملك؟ أم تحتمل زوجتك؟ أم تحتمل ذلك الأخ الذي يمثل دور البريء ويمتص دمها؟ أم تحتمل ذلك الأخ الثالث الذي يطالبها بما لا

تستطيع أو يدفعها للاتصال بنا وبالبنات ليؤمِّنَ مستقبل أولاده وهو لا يفعل شيئا؟ وحتى الأرض التي اشتريناها ورَيَّسْنَاه عليها بوَّرَها وأتلفَ محاصيلَها. كل ما يهمكم الفياجرا والأكل ولا تفكرون في عمل شيء. حتى أرضنا استأجرتم لها أحدًا يزرعها، ولو طلبتُ منها حتى عود جرجير تبيعونه لي بضعف ما تبيعونه للغريب.

- أنت لا تعرف شيئا. الكتب لحستْ مُخَّكَ. هل أعمل في وظيفتي أم أعمل في الأرض؟

- قل له. كلما جاء من المدينة قال لنا الأرض. أي أرض وما نأخذه منها في السنة لا يساوي مرتبا واحدة مما يقبضه هو؟

- أهل المدينة هؤلاء يعيشون في ملكوت. كل مرة يقول لنا: الاستثمار، العمل، الأب، الأم، الأرض، تربية الأرض، رعاية الخضرة، مستقبل الأولاد.

- المجانين في نعيم.

أراني أقف صامتا ذاهلا: كيف لي أن أساعدهم وهم لا يريدون أن يساعدوا أنفسهم؟ كيف أصل رحمي وهم يقتلون أمي ليل نهار؟ وبعد كل ذلك تخرج أمي عن صمتها ودموعها وألمها لتقول لي:

- دعه يا ولدي. أهم شيء أن تكونوا مع بعضكم البعض، يد واحدة، ولا تشمِّتوا فينا الغريب.

- أي غريب وأي قريب وشبكة العلاقات كلها واقعة!! إن لم تنصلح البنية التحتية يا أمي لن ينصلح شيء.

- قل لي كلاما أفهمه يا ولدي. دعك من تحت وفوق. لم يضربني. دفعني بيده فقط. هو لم يقصد.

أحسستُ بأن أمي تلوي ذراعي. تفهمتُ تضحيتها، لكنني رأيت أن التضحية أحيانًا تكون سمًّا قاتِلًا، تُفْسِدُ كل شيء. وتذكرتُ تضحياتي، قوت أولادي الذي لم أبخل به على أحد. تقترض المال لتعطيه لهم كي يقفوا على أرجلهم ويظنون أن ما تعطيه لهم ذكاة مالِكَ ومعك

عـشرات أضعـاف مـا أعطيتَـه لهـم. والغريـب أن معظمهـم موظفـون مثلـك وإن كانـوا في وظائـف أقـل نوعـا مـا.

***

أحـضرتُ لـك، يـا راوي، ملابسـك الشـتوية مـن شـقتنا. آسـفة يـا حبيبـي. زيـارتي قصـيرة جـدا، فهـا هـي الدراسـة قـد بـدأت ولا نسـتطيع إلا أن نمكـث معـك يومًـا واحـدًا ويومًـا نقتسـمه عـلى المواصـلات قدومًـا ورجوعًـا. أحـضرتُ لـك هاتفًـا محمـولًا آخـر بـه كشَّـاف لأن الكهربـاء عنـدك هنـا وعندنـا هنـاك تنقطـع عـلى الـدوام. أحـضرتُ لـك أيضـا كارت ذاكـرة أكـبر لذاكـرة هاتفـك الأصـلي، ونقلـتُ لـك عليـه كل مـا كان عـلى الـكارت القديم، وسـأحتفظ بالقديـم معـي حتـى تسـتطيع أن تسـجل مـا يحلـو لـك وحتـى أحافـظ عـلى مـا هـو مسـجل عـلى الـكارت القديـم فربمـا تحتاجـه إذا ضـاع هاتفـك أو أتلـف أحـدٌ بيانـات مـن عليـه، فلقـد قلـتَ لي مـن قبـل إنـك تسـمع أحيانًـا تشويشًـا في هاتفـك عندمـا تجيئُـك عليـه بعـض المكالمـات. أحـضرتُ لـك أيضـا بعـض كتبـك لأن المكتبـة التـي هنـا في هـذه الغرفـة، مكتبتـك القديمـة، كتبُهـا المتبقيـة قليلـة، لأنـك كـما قلـت لي مـن قبـل كانـوا يحرقـون الكتـب للتدفئـة أو في الفـرن أو لأي شيء.

العيـال فرحـون جـدًّا بالطيـور، فرحـون بالغـراب والهدهـد والزرازيـر. يلتقطـون لهـا صـورًا وهـي بجانبـك عـلى الدكـة أو تحـت شـجرة التـين أو في هـذه الغرفـة. ويصـورون أنفسـهم سـيلفي معها. تقـف الطيور عـلى أكتافهم أو عـلى أياديهـم أو بجانبهـم عندما يكونون جالسـين بجانبهـا، وجودها معك يطمئننـي، وأحـس فيهـا بألفـة شـديدة، كأنهـا مـن عيالنـا أيضا.

أحـضرتُ لـك طعامـا جهّزتـه ووضعتـه في الثلاجـة، وأحـضرتُ طعامـا للغـراب والهدهـد وللزرازيـر أيضـا، لسـتُ في حاجـة لأن أوصيـك بهـا، فأعـرف أنهـا صديقاتـك، وأنـك تتعامـل معهـا كـما لـو كانـت تسـمع كلامـك وتفهمـه. في حفـظ اللـه يـا حبيبـي. هيـا يـا عيـال بوسـوا أباكـم، فالسـيارة

التـي اتصلنـا بهـا لتنقلنـا إلى المَوْقَـفِ قادمـة هنـاك في أول الطريـق. نلتقـي عـلى خـير يـا حبيبـي.

***

غَلُبْـتُ معـك يـا راوي! لا أعـرف كيـف تتجـبَّر ذاكرتـك إلى هـذا الحـد لتنسـيك معظـم الأشـياء والوجـوه إن لم تكـن كلهـا! أتحسَّـسُ رأسَـكَ. لا بـد أنـك تذكـر لمسـاتي عـلى جُرحـك، تذكـر شـفاهي وهـي تحـاول أن تضمـد جـراح رأسـك. كانـت الذكـرى السـنوية لذلـك الرئيـس المشـئوم وكنتَ وسـط الشـباب في الميادين تهتفـون بعـودة الـروح التـي كادت تفـارق الأرض، فلـم تجـد إلا خرطوشـا عـلى رأسـك ورصاصـة حيـة لامسـتْ فـروة رأسـك وكانـت قدمـك شـبه عرجـاء كأن الـذي يصـوب عليـك يصـوب عـلى الـرأس وعـلى القـدم كي لا تتحـرك فكـرة في الـرأس ولا تـدب خطـوة عـلى أرض الوطـن لتصنـع شـيئا لـه.

صـارت المستشـفيات لا تعـترف بـأي ضحيّـة أو مُصَـاب، ولا يصـاب إلا كل مُعَـارِض لشـفْطِ روحِ الأرض، كانـت تعتـبره عـدوا وخائنـا وعميـلا ولا يحـق لـه العـلاج، وكانـت مقاومتـك رائعـة كأن جرحـك يتعـاون مـع عزيمتـك في أن يتماثـل للشـفاء عـلى عجـلٍ.

عندمـا طلبـتَ أن تنـزل في زيـارة للبلـد في عيـد الأم اسـتغربتُ تمامـا. لم يحـدث أن قطعنـا خمسـمائة كيلومـتر لـنرى أمهاتنـا في عيـد الأم. كنـا نكتفي بالاتصـال ولا ننـزل للزيـارة إلا إذا كان عيـد الأم مقترنـا بالعيـد الصغـير أو العيـد الكبـير، وحـدث مـرة أو مرتـين منـذ زواجنـا أن تصـادف عيـد الأم مـع عيـد الأضحـى قبلـه بأيـام أو بعـده بأيـام. قلـتُ:

- فلتنـزل. ربمـا يعجِّـلُ ذلـك مـن شـفائك، ربمـا يخفِّـفُ مـن اشـتعال رأسـك غضبًـا عـلى مـا يحـدث مـن انحـدار. ربمـا يسـاعدك قربُـك مـن أمـك عـلى أن تتوصَّـلَ لرؤيـةٍ قـد تصنـع شـيئًا يبنـي الوطـن ويزلـزل الأعمـدة المتآكلـة والقراصنـة المخادعـين.

لم أظن أن زيارتك لأمك ستؤدي إلى انتكاسة كبيرة. عرفتُ منك بعد وصولك مباشرة أنك لم تزرها بمناسبة عيد الأم، ولكن هذا العيد كان مجرد حيلة أو عذر لزيارتها لا أكثر. علمتُ منك أن أحد إخوتك ضربها ورفع الفأس في وجهها وكاد يفصل رقبتها. قلتَ لي أسبابا كثيرة، لذلك لا أعرف أيها أصدق، فمن يقول من الشهود إن زوجة أخيك قالت له:

- إما أنا أو أمك في البيت.

ومن يقول إن أمك طالبته أن يدفع ما عليه من قيمة فاتورة عداد الكهرباء المشترك في البيت القديم، فافتعل شجارًا وكاد يقتلها. منهم من يقول إن أمك طلبت منه أن يقسِّم محصول الغيط بينه وبين إخوتك القاطنين في البيت بالتساوي، لكنه هاج وقال إن أولاده أكثر عددا وإنه الأكبر بين المتواجدين بالبيت وإنه يحق له أن يأخذ النصيب الأكبر.

لا أدري سببا محدَّدًا لأنك عندما كنت تحدثني عن ذلك لم تكن تدري سببا محددا، كما في أي شيء هناك، فلا تستطيع في هذه القرية أن تعرف شيئا على وجه التحديد، كل واحد ينقل لك كلامًا عكسَ كلامِ الآخر، وكل واحد يُقسِم أنه يروي الحكاية الحقيقية. وأنت لم تكن موجودا هناك في البداية، وعندما وصلتَ – كما قلتَ لي – سمعتَ كلامًا متناقضًا من الجميع ولم تستطع أن تتوصل لصورة مقنِعَة. وكل ما كان يؤلمك أن تمتدَّ يَدٌ لأمِّكَ، أن يكون ذلك جزاءها بعد كل هذا العمر، أن تنزل دمعة من عين أمك في هذا العمر وطوال حياتها لم تنزل من عينيها سوى دموع الفرح ودموع الفراق.

بعدها بيوم أو يومين كنتُ أكلمك ووجدتك غاضبا وتقول:

- دمي محروق. أأقطع رحمًا لأصل رحمًا؟ أأدخل السجن في كائن لا يراعي أمه ولا يحترم نفسه ولا يترفع عن أهواء زوجته وخرابها؟

بعدها سمعتُ أصواتًا عالية وتشاجُرًا، وكانت صرختك مدوِّيةً وانقطعت المكالمة بيننا ولم تعد تذكر شيئًا بعدها.

إذا كنتَ تريد نصيحتي، لا تقطع ولا تصل، المهم الآن أن تجلس مع نفسك، وتواصل الاستئناس بالغراب والهدهد والزرازير، كي تستطيع أن تجمّع ذاكرتك المتناثرة هنا وهناك، كي تعود إلينا يا حبيبي.

لم أستطع أن أحضر العيال معي هذه المرة، فها هو التيرم في منتصفه ولديهم اختبارات شهرية. تركتهم مع أختك بالشارع المجاور لنا بالجيزة، وجئتُ إليك سريعا في نهاية الأسبوع كي أطمئن عليك. لا تشغل بالك كثيرا بما حدث، المهم أن نظرتَكَ لي بدأت تصفو وبدأتُ أفهم بعض ما تريد أن تقوله لي.

أخذ الغرابُ والهدهدُ يرفرفان حولي عندما جئتُ بالأمس، كأنهما يرحبان بي، أو أنهما يدركان أنني قلقة عليك وأرادا أن يطمئناني عليك وعلى أنهما لا يتخليان عنك وأنهما معك إلى أن تعود إليك وتخرج من هذه الغربة في المكان والزمان، لنلتقي سويًّا ونعوّض ما فات.

سأتركك الآن، كي أستطيع أن أصل إلى الجيزة قبل غروب الشمس، فالسفر في الليل ليس آمنا كما تعرف، وقد يقطع أحد الطريق الصحراوي ولا أستطيع أن أصل للعيال. في حفظ الله يا حبيبي.

***

وماذا أفعل يا أختي؟ هل رأيتِني يوما أتراجع أو أدفن رأسي في طين وأرفعها بحيث لا يتعرَّف عليَّ أحدٌ؟ هل رأيتِني أقصِّر يدي على طريق تنتظرني يدٌ ممدودة على جهتها الأخرى؟ لكنني أقف الآن عاجزًا عن فهم أي شيء. لم أقل شيئًا. ولا أختلف معكِ في ذلك. تعرفين أنني لا أحب الظهور أو فرض إرادتي أو توجيه نصيحة لأحد ستُفهَم خطأ، كما تعرفين أنني لم أبخل بكل ما لديَّ عليهم وعلى عيالهم.

يحزنني الآن أن أجد نفسي واقفا في الهواء، لا قَدَمَ لي ولا شجرَ. حتى الأشجار التي زرعناها تيمُّنًا بشفاء أبينا قديمًا اقتلعوها، بالرغم من أنهم هم الوحيدون المستفيدون منها، فلا أنا ولا أنتِ ولا بعض إخوتنا

المتناثرين في المدن يأكلون من ثمارها شيئًا. وفيما تعنيني الثمار أصلا؟ الأشجار بالنسبة لي رمز، رمز لأبي، ورمز لحضورنا نحن الغائبون. قلنا بعد وفاة أبينا:

- فلتكن ثمارها صدقة جارية على روحه ما دمنا زرعناها له في الأساس. يأكل من ثمارها العيال والجيران.

أحسُّ ببصمتي تُزَال من هناك. وهل سأقضي بقية عمري يعذِّبني الحنين؟ حنين لا أجد يدًا واحدة تساعد في إشباعه. الواحد بدأ يشكُّ أصلا في هويته: من أنا الآن؟ أأنا ابن تلك القرية التي تأخذ ما أقدِّمُه لها وتبصق في وجهي كحركة شكرٍ أو ردٍّ للجميل؟! أنا لا أعتبره جميلا أصلا. أذكِّر نفسي دائما بأن هذا فرض عينٍ عليَّ، فكما تعرفين، لا تُقصِر الشجرةُ ظلها على مَن زرعها وثمارها يمكن أن تُطعم أي إنسان. أبونا لم يفرِّق بين أحد. كان يجلس في وقت العصر بجانب ماكينة المياه على الطريق الغربي ويدعو أي مارٍّ لتناول الشاي. وكان يضربنا إذا ضرب أحد منا نحن الأطفال أحدًا من البيوت المجاورة. أصرَّ على تعليمنا جميعا بالرغم من أنه لا يقرأ ولا يكتب، ولم يدخل يوما مدرسةً. ولكن واحدا من إخوتنا هرب من التعليم، كما تعرفين.

فيما كانت سَتَضُرُّ الأشجارُ لو بقيت دون اقتلاع؟ هل نكاية فينا لأننا سَكَنَّا المدنَ أم نكاية في أبي ولا يريدون أن تصل إليه صدقة جارية؟ ومن الذي أخطأ أصلا في حقهم أو حق غيرهم؟ إلا إذا كان ما لا نبخل عليهم به إهانة في حقهم؟!

لا أدري إن كان عليَّ أن أبتسم أم أنفجر من الغيظ! أحسُّ بالدم الآن يتسارع ليتمرَّدَ على مجاريه. أتذكرين عندما ذهبتُ إلى هناك في الصيف الماضي ووجدتهم يحرقون كتب مكتبتي في الفرن لأن أحدهم تكاسل وتراجع عن الخروج إلى شونة الحطب ورأى أنه من الأسهل عليه أن يغذِّي الفرن بكتبي. ولمَ تركتُها أصلا؟ كان بإمكاني طبعا أن

أشحنها إلى شقتي هنا في الجيزة، لكنني قلتُ لنفسي:

- اتركْها عندهم؛ فربما احتاجها طفلٌ أو شابٌّ من بينهم.

المرة الوحيدة التي قرأ أحدهم كتابًا أو جزءًا من كتاب لي، رنَّ على هاتفي لأتصل به ويوبِّخني لأنني كتبتُ قصة عن شخصية من قرية وتصادف أن اسمها كان متطابقًا مع اسم شخص من العائلة. كأنهم القداسة بعينها، كأنهم على صواب دوما ونحن لا نعرف أي شيء عن الصواب. والتُّهَمُ جاهزة عندهم: كيف أتَّهم تلك الشخصية من العائلة؟ كيف أفضح أسرارنا؟

والله ما عدتُ أدري إن كانت أسرارهم أم أسرارنا، إن كنتُ أنا منهم أم لا. وما معنى الأسرار أصلا؟ ومن ذا الذي لا يستمد من حياته زادًا لتجارب يرويها أو قصة يكتبها أو رؤية يطل منها على الحياة أو منظورًا يوسِّع له النظر إلى تجارب الآخرين؟

هيا وسِّعي مداركَ دراستِكِ للماجستير في مجال الرواية. لا طبعًا. لا يمكن أن تتوقفي لأي سبب. طبعا حياتك وحياة أسرتك الصغيرة أهم، لكن لا تتركي العوامل الأخرى التي تصلك عبر الهاتف أو بالقضاء المستعجل، أقصد البريد السريع ولا تعترف بالمسافات ولا الجغرافيا، تحبطك. يمكنك دائما أن تحاولي، أن تتجاهلي ما ترينه غير طبيعي ويكاد يوقف حياتك كلها. الجذور يا أختي. ألم أقل لك منذ قليل إنني ما عدت أعرف لي هوية؟

خفِّفي عن نفسك. أنا شخصيًّا لا أجد مبرِّرًا لكل ما يحدث لنا في حياتنا الشخصية خارج جهينة. وحتى إن أرجعنا ذلك للجهل، فهو أو غيره ليس جاهلا ولا صغيرا. تعليمه الجامعي مثلنا تماما، فلقد تخرَّج في نفس الكلية التي تخرجتُ فيها أنا وأنتِ. يمكن أن يحدث طبعا. ولا يوجد ما يمنعه من أن يكرر ما فعله من قبل ويطردك من بيت أبيكِ على أساس أنك متزوجة ولا يحق لك أن تأتي إلى بيتِ

أبيكِ وطفولتك إلا إذا جئتِ حاملة مأكلك ومشربك وكذلك هدايا له ولأطفاله وزوجته. من أنا؟ ومن أنتِ يا أختي؟ وأنا أيضا وجَّه لي اتهامات ليس لها أساس. وحتى لو اكتفى بالاتهامات كان من الممكن أمامي أن أتغاضى عنها: زيارة أو زيارتان في السنة لا غير، ومتى نلتقي بعد ذلك؟ ربكِ هو العالِم، ربما نلتقي مرة أو مرتين أو لا نلتقي. لكنه بدأ يكتِّل كلَّ الناس ضدي.

ولماذا سأذهب أنا أصلا؟ أمجرد حنين إلى لحظة دفء؟ أم أن ذهابي رغبة منِّي في امتداد الدفء إلى حاضري. أسمعكِ تضحكين: أي دفء وحرارة أغسطس لا تُبقي لأحد إلا رغبة في البرودة؟ فكَّرتُ في الأمر ورأيتُ البرودة احتمالا واردًا قد يكون حلًّا سحريًّا: الابتعاد وتجميد الوضع عند نقطة حميمة ماضية كي لا يصدمني إحساسي بانهيار كل شيء. لا يُعقل أن أبدأ الآن بعد سن الأربعين بالبحث عن الطريق، بالبحث عن الانتماء، بالبحث عن السفر، بالبحث عن ملامح أب مات، عن ملامح أم ما عادت تفرِّق بين شيء، عن نسمة تعذِّبني في غربتي وكأنها جاءت فجأة كي توبِّخني أو كي تصبِّرني أو كي تبلغني برسالة لا أستطيع تحديدها بالضبط.

هل أستطيع أن أحتمل ضياع أربعين عاما هي كل شيء بالنسبة لي فجأة وبدون سابق إنذار وبدون سبب منطقي أستطيع أن ألمسه بيدي. يا الله! «كلما وصلْنَا إلى ميناء ...» و«كلّما نصل إلى ميناء...» أيضا. يجوز يا أختي يجوز. كلما أرتِّب أوراقي وأعيد تشكيل مفردات حياتي بحيث تصير منسجمة إلى حد ما حتى أستطيع أن أواصل حياتي وأرعى زوجتي وأطفالي وأكمل ما بدأتُ في كتابته، تنقلب أيامي عليَّ وأجدني راجعا لنقطة الصفر لا أعرف مَنْ أنا ولا أستطيع أن أحدد ملامح شبكة علاقاتي وجذوري.

حتى الكمبيوتر أحسُّه أحيانا يتلاعب بي. أتذكرين يوم عيد الأضحى السنة قبل الماضية؟ اشتعل الكمبيوتر والطابعة في غرفة المكتب التي كنا لا نجلس فيها، ولم يكن هناك أي سبب منطقي لأي شيء: حديد يشتعل دون إشعال نار في يوم من المفترض أنه يوم عيد وفرح. طبعا مذكور في القرآن في قصة سيدنا سليمان وقصة سيدنا موسى ومواضع كثيرة. لكن السؤال يفرض نفسه: لماذا أنا وأنتِ وكل إخوتنا الذين لا يعيشون في القرية؟ أكلما خطونا خطوة جاء أحدٌ لا نراه وألغاها بما لا نطيق؟

في النهاية نحن بشر، وكل منا له طاقة على التحمُّل. ولماذا تتضاعف المشاكل عندما ننزل البلدة لنقضي أجازتنا السنوية؟ سؤال لا أستطيع أن أجيب عليه، بالرغم من أنه سؤال يطرحه كلُّ صديقٍ من أصدقائي على نفسه عندما ينزل بلدته لقضاء إجازة أو أي مناسبة أخرى. أتذكرين عندما تلفتْ أجهزتُنا في وقت واحد في سبع شقق في مدنٍ مختلفة. ليستْ مصادفةً بالتأكيد أن تتعطل جميع الأجهزة في جميع الشقق في نفس التوقيت. وما الذي فعلناه ضد أي أحد؟ الواحد أحيانا يغبط سكان المدن الذين ولدوا فيها أبا عن جد. يا الله! اللهم ثبِّت عقولنا وألهمنا الرشد والسكينة والرضا.

من داخلي لا أريد. لا أحس أساسا بالرغبة في الذهاب، وتطاردني أغنية لا أستطيع الإفلات منها كأنها لعنة أبدية منذ أن سمعتُها وهي لا تفارق أذني: «ماذا نفعل ولقاءنا وداع نؤجِّله «. هل أذهب ويكون ذلك آخر يوم وبعده عليَّ أن أعيد تشكيل هويتي وأعيد رسم خريطة انتماءاتي وأبحث لي عن أب أو أبحث في دفاتر عائلة منسية عن جذور أخرى، عن إحساس بالامتداد لا أحس به الآن ولا أجد له أي معنى؟!! يا الله... يا الله! كل الناس الطبيعيين تتجاور مشاعرهم المتناقضة بجانب بعضها البعض وهم بشر في النهاية، بل هم هكذا. لكن لا يوجد مبرر أصلا للعداء المستمر. ليس زميلا لي بالعمل يعاديني لأسباب يتوهَّمها

بأنني أنافسه وأنني عندما أخطو خطوة للأمام في حياتي الخاصة أو حياتي العامة يعتقد أنها خطوة على حسابه هو. لسنا زميلين، هو أخ. أخ لي، كما هو أخ لك.

هل توصَّلتِ إلى نتيجة مُرضية أو رغبة حقيقية بعد صراعكِ مع نفسكِ الأسبوع الماضي؟ ... وأنا كذلك. لم أستطع أن أتوصل لرغبة حقيقية لديّ في الذهاب. لكنه عيد، وأنا سأقطع مئات الكيلومترات لكي أذهب إلى بلدتنا أو لكي أستعيد بعض الأحاسيس المفقودة أو أستجمع صورا باهتة من ذكريات تعذِّبني الآن وتشكِّكني في كوني موجودًا أصلا في تلك الذكريات. أريد فقط أن أذهب لأتحسَّس أنفاسي في المكان وصلاتي على الجدران، علاقتي بالأشجار، همسي لمجرى الماء، ... بعض كلمات ربما تكون وثيقة رسمية لي تصير هوية وعنوانا وعلامة على أنني كنتُ هناك، على أن جسمي هذا بكل ما فيه من إحساس وفكر ورؤية ليس نبتًا شيطانيًّا في حاضرٍ مهجورٍ، بل له جذور، له امتداد، كان يعيش منذ عشرين سنة ومنذ ثلاثين ومنذ أربعين سنة في أرض هناك، كانت رؤاه تتشكَّلُ فيها وبها، كان يترك بصمةً في المكان ويترك المكانُ بصمةً في روحه، كان جزءًا من كلٍّ، وكان فردًا تمتد عيناه في الأفق إلى حيث يعدو القطار لاهيًا دون أن ينتظر، دون أن يمرَّ على قرية نائية.

***

أعرفُ يا راوي أنها كانت تجربة قاسية عليك، لكن ما العمل؟ كُلِّيَّتُك بدأت تصرُّ على فصلك من العمل، فأنت منقطع منذ شهور، ولم يكن أمامنا طريقة للحصول على شهادة مَرَضِيَّةٍ إلا بنقلِكَ من هنا غصبًا عنك إلى تلك المستشفى الحكومية بسوهاج كي يصدر لك طبيب المخ والأعصاب تقريرا طبيًّا يمكننا أن نرسله إلى كليتك. هم يعرفون أنك مريض وأنك تلقَّيتَ ضربة شديدة في رأسكَ، لكنهم يقولون:

- لا شأن لنا به ما دام لا توجد لدينا أوراق رسمية.

أخذتَ تصرخ وترفض القيام من تحت شجرة التين التي أعرفُ أنها ترمز لأبيك وتربط بينه وبينها، وهي أيضا التي... لا يهم. لا تشغل بالَك بشيء الآن. لم أكن موجودة. فأنت تعرف مدارس الأولاد، وتعرف أنَّ السَّفَرَ في ذلك الوقت غير آمن من الجيزة إلى هنا في الصعيد. مسافة ست ساعات، والطرق يمكن أن تُقطَع في أي وقت. حكى لي أخواك اللذان يعيشان في سوهاج المدينة إنك تشبثتَ بشجرة التين لدرجة أنها كادتْ تُقتَلَع، ولولا أنك رأيتَ أنها بدأت تتلخلخ قليلا ولولا أن الغراب والهدهد فزعا لرؤيتها تتلخلخ، لما هدأتَ ولما ركبتَ السيارة في صمت تام، بعد أن نظرتَ طويلا إلى شجرة التين والدموع تنساب من عينيك، كأنك كنتَ تحسُّ بما كان يحدث حولك.

بعد أن انتهى الطبيب من كتابة تقريره وقام بختمه، أخذتَ تصرخ وتطالب بالعودة إلى البيت وشجرة التين. حسبي الله ونعم الوكيل في تلك الكلية وذلك التعنت، كأنهم كانوا يريدون أن يتصيّدوا أي شيء لك، وينتظرون منك أي خطأ، حتى لو كان ذلك الخطأ أنت غير واع به لينصبوا لك المقاصل، وكأنك لم تعمل في تلك الكلية سنوات وسنوات. وآخرُ المَتَمَّة يأتي رئيسك في القسم ويقول إنك علماني والكلية طاهرة وستظلُّ طاهرة، ويا أمَّ المطّاهر رشّي الملح سبع مرّات!! همٌّ يُضْحِكُ وهمٌّ يُبْكِي. ورئيسك هذا لا يجرؤ الآن على أن يعلن عن ذلك صراحة، فلقد تحوّلَ كما هو دائمًا. آآآه! أين سيذهبون؟ سيأتي لهم أو عليهم يوم. لا تبتئس الآن، سأضطر لأن أتركك، لا أستطيع النزول الآن أيضا، وها أنا أرسل لك هذا المقطع الصوتي مع صديقك حسن الذي سينزل للاطمئنان على أمه، وبالمرة يذهب إليك ليطمئن عليك ويسلمك الرسالة. نلتقي على خير يا حبيبي. شدَّةٌ وستزول، وسنجتمع عندك أو هنا نحن وأطفالنا بإذن الله.

آه صحيح، قبل أن أنتهي من التسجيل، إن شاء الله سنجتمع هنا، قلبي يقول لي إنك ستأتي إلينا قريبا، كما أن ذلك الحارس الغبي على بوابة البلدة كاد يقتادني إلى السجن عندما تجادلت معه وأنا أخرج من البوابة في المرة الماضية. قال إنه لاحظ دخولي وخروجي المتكرر في آخر سنة، وأنني لا يحق لي أن أدخل البلدة أكثر من أربع مرات في السنة ما دام محل الإقامة في بطاقتي ليس جهينة، ضحكتُ في سري من هذا التعسف، وضحكتُ أيضا لأنني دخلتُ جهينة في آخر سنتين عشر مرات، أربع مرات في السنة الماضية وست مرات في هذه السنة، ويبدو أن ضحكتي ظهرت على وجهي، فظن الحارس إنني أسخر منه، وقال:

- أنتِ تجاوزتِ المرات المسموح بها في الدخول. جهاز بصمة العين يقول إنك دخلت ست مرات، وسمح لك في المرة الخامسة لأنك كنت تصطحبين أطفالك، والأطفال لم يدخلوا هذه السنة إلا أربع مرات، ولذلك تم السماح لك في المرة الماضية.

سكتُّ، ولم أقل له:

- يا غبي ما شأني أنا وجهازك؟ أنا الآن أخرج، وهذا الجهاز لم ينتبه لي أمس عندما دخلتُ.

لكنني لم أقل له شيئًا، ووسعتُ ابتسامتي، فازداد غضبه، ولم يهدأ إلا بعدما اعتذرتُ له، وأكدتُ له إنني لن أدخل جهينة طوال الشهرين المتبقيين من هذه السنة الكبيسة، كبسة تطبُّ على غبائه وجهازه وعلى السور بأكمله، فخرجتُ ساخطة فعلا، ولكنني أحسستُ بالأمان بمجرد خروجي هههههههههههههههه يبدو أن ذلك الذي كتب العبارة على البوابة وعلى أهرامات الزينة كان يسخر ممن طلبوا منه كتابتها. آسفة، أطلتُ عليك في الكلام، لكن قلتُ أنبّهك كي تأخذ حذرك إذا قدّر الله لك أن تخرج من جهينة في هذين الشهرين اللذين لن أستطيع أن أجيء فيهما إليك. في رعاية الله يا حبيبي. وسلامي للغراب والهدهد والزرازير.

الفصل السابع

لم أكن أعرف، لولا كلام راوية في إحدى رسائلها الصوتية، أن البلدة بُنِيَ لها سورٌ يحيطُ بها من جميع الأنحاء كحصنٍ أو متراسٍ كأن هذه البلدة تحوّلتْ إلى قلعةٍ. صار الطريق يُفضِي إلى السور، وها هي بوابة ضخمة يقفُ عليها حارسٌ في منتصف العمر تقريبا يجلس على جانبها ويبدو أن ما أمامه شاشةَ تحكُّمٍ بكاملِ أزرارِها.

وقفتُ مذهولا أمام البوابة من الداخل، ففوقها مكتوب على شاشة تنير:

- اخرجوا منها بسلام ساخطين.

ربما كان ذهولي من الصدمة وربما كان من الدهشة الشعرية. أذكر أنني في كل البلدان التي نزلتُ بها عندما كان القطار وسيلة آمنة للمواصلات أو كان وسيلة آدمية أو كانت سكة القطار ذاتها لا يعترضها كل مترين معترضٌ، أجد لافتة عند محطة القطار تقول:

- ادخلوها بسلام آمنين

بالرغم من أن هذه اللافتة لا يستطيع أن يقرأها مَنْ يدخل هذه البلدة، وفي الغالب المحافَظَة، لأنها مكتوبة في الواجهة التي يدخل منها المسافرُ بابَ المحطة وكأن الدخول للمحطة للسفر بعيدا عن البلدة أو المحافظة هو المقصود، لتظلَّ الواجهة تقول شيئا لا يستطيع مَنْ تخاطبه الكلمات أن يقرأه أو يراه.

أحسستُ بالحيرة هنا أمام «اخرجوا منها بسلام ساخطين». وبالرغم من التساوي بين «ادخلوها» و«اخرجوا منها» على الأقل بالنسبة لموقعهما من الجملة، وأحسستُ أنهما متساويان، أو أنهما يدلان على نفس الشيء، أو أن الفرق بين الألفاظ يكاد يكون معدوما – لكن الذي

لفت نظري أكثر هو الجمع بين «السلام» و«السخط»، ربما أحسستُ بأنني الذي أتوهَّم أنني أقرأها هكذا، فأنا ساخط فعلا، وأنا الذي فررتُ بجلدي كما يقولون إلى... لم أصل إلى البر بعد، ولكنني سأقول مجازا إنني وصلتُ إلى برِّ الأمان، أو على الأقل إلى برِّ عدم الهجوم أو عدم المحاصَرَة، بالرغم من أن السور الذي أراه الآن، ولم أرَه أثناء دخولي، شاهدٌ على حصارٍ من نوع ما.

شدَّتْني الأهراماتُ الرمزية المبنية فوق السور ورأسها مضيء بمصابيح تخلب العين: «اخرجوا منها بسلام ساخطين». متى بُنِي هذا السور؟ ومتى ارتديتُ أنا هذه الملابس أصلا وأنا متأكد تماما أنني تركتها في شقتي في الجيزة عندما جئتُ هنا في عيد الأم؟ كان الجو ربيعا وكنتُ قد بدأتُ في ارتداء الملابس الصيفية، لكن هذه الملابس الشتوية التي أرتديها تدل على الزمن، على مرور الشهور، على سنة تكاد تكون كاملة مرَّتْ. أذكرُ أنني... لا أذكر، فلقد نظرتُ منذ دقائقَ إلى هاتفي ولم أنتبه للتاريخ، فأنا جئتُ في مارس، ربما كان الفزعُ أو التركيز على الخروج والنجاة هو الذي لم يجعلني أعير التاريخ اهتماما، فلقد كان الشهر شهر ديسمبر، تسعة شهور على الأقل مرت، نعم!! سنة وتسعة أشهر!!! ها هو صوت زوجتي يؤكد لي ذلك، نعم، أنا متأكد الآن من أنها ذكرت لي هذه الفترة الطويلة، لكنني لم ألتفت لها، يبدو أنني اعتبرتها تمزج، كأنها تؤكد أنها مشتاقة لي وأنَّها تحسُّ بأنَّ فترة غيابي طالتْ كثيرًا، خاصة وأنها كانت تضحك في ذلك المقطع الصوتي، وكأن ذكرها للفترة كان سخرية من الحارس.

وبدأتُ أدركُ الآن أنني تركتُها منذ سنة وتسعة شهور إذا صدَّقتُ الملابس الشتوية التي أرتديها وإذا صدَّقتُ تاريخ الهاتف وإذا صدقتُ المقطع الصوتي لزوجتي وإذا صدقتُ لسعة البرد التي بدأتُ الآن عندما صفا تركيزي قليلا أحسُّ بها تنهش في جسمي....

***

ما أن اقتربتُ خارجًا حتى وجدتُ البوابة يتم إحكام غلقِها ووجدتُ شيئا أشبه بالأسياخ ينزل من أعلى السور بجانب البوابة من الداخل ويلامسُ الأرضَ بحيث لا يستطيع أحدٌ الخروجَ حتى لو كانت البوابة مفتوحة. نهض من أمام الشاشة. رفع سلاحا. شدَّ أجزاءَه:

- من أنت؟ بطاقتك. ارفعْ يدَكَ.

أستطيعُ أن أجيب على السؤال الأول بدون مشاكل. لكن كيف أجمع بين رفع يدي وإخراج بطاقتي لأريها له؟ أخبرتُه باسمي: راوي زارع الصانع. رفعتُ يديّ. وتجاهلتُ السؤال عن بطاقتي. أخذ يضحك بهستيرية كأنني ألقيتُ نكتة لم يسمعها أحد من قبل. ثم أمسك نفسه فجأة عن الضحك وقال متجهّما وساخرًا:

- ما هذه الأسماء التي سميتموها؟

قلتُ في سرِّي: هل الأسماءُ تعلَّلُ؟ بالرغم من أنني أدرك أن أبي أسماني بهذا الاسم عن قصد. ثم قلتُ له:

- هو اسمي الذي في البطاقة؟ هل أغيّره؟

- وأنا قلتُ لك أين بطاقتك؟

أنزلتُ يدي لأخرجَها من جيبي، فأشهر السلاح في وجهي تماما وكرَّرَ:

- قلتُ لك من قبل: ارفعْ يدك.

رفعتُها وقلتُ له دون أن أُظْهِرَ نبرة السخرية في كلامي:

- البطاقة لا تزال في جيبي.

أخفضَ السلاح. وضع يده في جيبي، والحمد لله أن البطاقة كانت في جيب القميص وأنني كنتُ أوزع نقودي ما بين القميص وجيبيِّ البنطال الخلفيين وجيبيه الجانبيين. يبدو أنه لم ينظر إلى اسمي ونظر فقط إلى محلِّ إقامتي، فلقد سألني:

- ما الذي حاء بك إلى هنا وإقامتُكَ في مدينة بعيدة؟

- أنـا مـن هنـا. العنـوان واجهـةٌ قـد لا تكشـف شـيئًا وقـد تكشـف نصـف المعـروض ولا تكشـف عـن النصـف الآخـر.

نظـر إليَّ ببلاهـة أو اسـتغراب أو شـكٍّ، ووجدتُـه يشـير إليَّ لآخـذ بطاقتـي ويفتـح البـاب لأجـد نفـسي وسـط المقابـر بالليـل.

***

مـا أن خرجـتُ مـن السـور نظـرتُ للـوراء كأننـي سـأكسر قُلَّـةً عـلى البلـدة بأكملهـا وكأنهـا هـي التـي تغـادرني أو ترحـل عنـي. رأيـتُ الواجهـة مكتوبـا عليهـا:

- الحَجْرُ القروي، أدخلوها بسُعار طامعين.

لم تكـن الواجهـة الداخليـة وهْـمًا أو تخيُّـلا إذن، فهـي مقصـودة، كـما أن الواجهـة الخارجيـة مقصـودة. ضحكـةُ زوجتـي سـاخرةٌ إذن، كنـتُ أحسـبها تسـخر مـن الوضـع في البيـت في جهينـة وكأنهـا تؤكـد أن ذلـك البيـت صـار سـورًا، لكننـي الآن أبـصر الدليـل عـلى أن كلامهـا عـن سـور فعـلي، وأن الحـارس يقـف ليسـدَّ بجهـاز التحكـم الفتحـة الوحيـدة التـي هـي عبـارة عـن بوابـة للخـروج.

متـى بُنِـي هـذا السـورُ؟ متـى صـارتْ البلـدة بأكملهـا حَجْـرًا؟ ومـا معنى ارتبـاط الحَجْـر بالقريـة؟ أذكـرُ «كِريـرَةً» في سـبعينات القـرن العشريـن، وربمـا كانـت قبـل ذلـك ولكـنَّ الذاكـرة دمجـتْ الحـكيَ بالمشـاهَدَة. ولكـن الكريـرة تُبيـدُ الطيـورَ، والطاعـونُ قـرأتُ عنـه في الكتـب فقـط ورأيتُـه في فيلـم ليوسـف شـاهين... لكـنَّ سـهمًا أضـاء في الواجهـة أيضـا يتنـاوب الظهـور مـع «ادخلوهـا بسُـعار طامعـين» يقـول:

- الحَجْرُ الحضري رقم 20 على بعد 50 كيلومترا.

دَقَّقْـتُ النظـر لأرى رقـمًا يظهـر ويختفـي بجانـب عبـارة «الحجـر القـروي» تجـاوز المائـةَ.

صـورٌ تتقلَّـبُ في ذاكـرتي بسرعـة خاطفـة، تُرجعِنـي، لا أريـد أن أصدِّقَهـا،

تـكاد تُرجـع لي ذاكـرتي بالكامـل. سـأتخيل الآن أننـي لا أذكرهـا. سـأتخيَّلُ أنهـا لم تحـدثْ أصـلا. سـأتخيَّل فقـط أن كل الذيـن أذكرهـم شـخصياتٌ كتبـتُ عنها/عنهـم مـن قبـل. سـأتخيَّل أننـي أنـا أيضـا شـخصية في قصـة أو روايـة كتبتُهـا مـن قبـل. سـأتخيَّل أننـي مجنـونٌ أو شـخصية مـن ورقٍ، فهـل يُعقـل، حفاظًـا عـلى الأقـل عـلى... مَـن؟ أمـام نفـسي؟ أمـام زوجتـي؟ أمـام أصدقـائي؟ كلنـا نعـرف الصـورة الحقيقيـة. لكـن أي شـخص لا يـبرح الكتـب أو الشاشـات أو البرامـج الحواريـة التـي لا تهـدف إلا إلى جمـع الإعلانـات لتسـقط بلـدًا بأكملهـا وتفـرحَ الأحـزابُ والائتلافـاتُ والجماعـاتُ بنـصرٍ وهمـيٍّ تحققـه عـلى شاشـة سـتكسرها الأفـواه – هـذا الشـخص لـن يسـتطيع أن يسـتوعب مـدى تعقُّـد الأشـياء، مـدى عمـق النفـس البشريـة، مـدى الصراعـات المعقولـة واللامعقولـة، فمـسرح العبـث في حـد ذاتـه شـديدُ الواقعيـة في هـذا السـياق. إذا قلـتُ لأحـد:

- سأحكي لك قصة حقيقية

وأسرد لـه جـزءا مـما تعرضـه عـليَّ الصـور في رأسي وترجعـه لي ذاكـرتي كامـلا مُكَمَّـلا، سـيقول لي:

- هـل «تـسرح» بي؟ هـل تدهـن لي الهـواء «دوكـو»؟ هـل تريـد أن تذهـب بي إلى البحـر وتُرجعنـي عطشـانًا؟

سـيعتقد أننـي موهـوم وأتكلـم عـن مشـاكل لا وجـود لهـا وعـن وطـنٍ غريـب سـينهار ولا يمكـن أن يطـال انهيـارُه وطـنَ ذلـك السـامع أو المشـاهد أو حتـى القـارئ المُتَوَهَّـم، كأن رؤوس الأهرامـات التـي تلمـع فـوق السـور حقيقـة. سـأتخيَّل أني مجنـون أو سأرسـم أني مجنـون لأوهـم ذلـك القـارئ بـأن كل مـا أتكلـم عنـه عبـارة عـن شـخصيات مـن قصـص وروايـات كتبتُهـا مـن قبـل.

أذكـر رائحـة المقابـر مـن قلعـة صـلاح الديـن بالرغـم مـن أننـي أذكـر الآن أننـي خلطـتُ منـذ سـاعات بينهـا وبـين قلعـة محمـد عـلي، وكيـف

أنها - بالرغم من ثقلها لدرجة أنني أحس بأنها رائحة مكونة من طبقات - تمنحني الإحساس بالانتعاش وبامتلاء رئتيَّ بالتاريخ على أنغام الموسيقى بمهرجان القلعة. أذكر مقابرَ مررتُ بها، ربما كنا نسير أنا وأصدقائي من الجيزة عبر طريق صلاح سالم لنتجه بالقرب من نادي ربما كان اسمه «الأبطال» يسارا ونسير وسط مقابر تمتلئ بأناس يرقدون فيها انتظارا لحياتهم الدائمة وأناس ينامون فيها انتظارا لبدء حياتهم المؤقتة. كنتُ أظن أن انتظارَهم لن يطولَ، لكنه طال كلَّ هذه السنوات، بالرغم من أنني لديَّ إحساس بأنه سينفجر عما قريب. كنا نسير لنصل إلى مسجد السيدة نفيسة من الخلف لنصلي ركعتين، أو نصل إلى مبنى تاريخي أو نسير مع الشوارع إلى أن نصل إلى قلعة صلاح الدين.

***

نظرتُ للوراء. بعد أن قرأت الَحَجْرَ القروي رقم كذا... كانت هناك لوحات تتبدل ألوانُها كتلك اللوحات الضوئية التي تُستخدم في الترحيب خارج القرى أو المدن أو المحافظات أو أي شيء من هذا القبيل. كانت مكتوبة عليها آية «كلُّ مَنْ عليها فَانٍ». لم تكن الرائحة، التي كانت تثقل على صدري ورئتيَّ ودمي، تخيُّلا أو إحساسًا نفسيًّا أو انعكاسًا للإحساس بالضيق أو القرف أو الاستنكار لما يحدث. والأغرب من ذلك أن تجدها في مدخل مكان يُفترض أنه مخصص لحياة، أنه دار عمل، دار إعمار، دار استخلاف، دار صناعة، دار حماية أنفسٍ، دار يحمل كل معاني الإيجابية والبناء والنماء والنهضة... لا، لا، النهضة كلمة لا تعطيني إحساسا بالاسم أساسًا، كأن الشعب يريد الإبادة، متى كانت الإبادة إرادة شعب؟!

وها هي مئات الوجوه التي رأيتُها منذ ساعات أو ربما منذ زمن داخل ذلك السور تدل على أن الإبادة مستمرة، على أن الحوادث

كـما هـي، الإهـمال كـما هـو، التسـيب كـما هـو، كـما أن مجـرد دخـول هـؤلاء الآبـاء والأمهـات بأطفالهـم المُغْتَالِـين نحـو مـا يُفـترض أنـه عَـمَارٌ لدفـن أبنائهـم، هـل أوحـى لهـم بذلـك، أوحـى لهـم بـأن القلـوب الطاهـرة يمكنهـا أن تسـتوطن أرضـا لا تفـرز إلا رائحـة المـوت؟ سـأدّعي أننـي مـا زلـتُ مجنونـا وأننـي لم أسـمع كلام ذلـك الـذي كان يريـد أن يفجّـرني بهاتـف ابنـي وهاتـف زوجتـي، ولم أدرك أن مشـهد تشـييع جنـازة الأطفـال كان مجـرد تمثيليـة. سـأقول إن هـذه أو تلـك الرائحـة رائحـةٌ تُبعـد حتـى زائـري المـوتى وتصْرفهـم عـن الزيـارة، عـن التفكـير في الزيـارة بالمـرة. «كل مـن عليهـا فـان». أدرتُ لهـا ظهـري، فأنـا إنسـان فـانٍ بطبعـي، لكننـي أفنـى عندمـا يحـين أجـلي، ولا أسـمح لأحـد أن يُفنينـي عامـدًا متعمِّـدًا أو مشـترِكًا بالتواطـؤ أو السـكوت أو عـدم الصيانـة، أو بالإهـمال أو عـدم التجديـد والمراقبـة والمحاسـبة و...

***

آآآآآآآآآآآآه. المقابـر خـارج السـور تمنحنـي هـواء مُنْعِشًـا لا أحـس لرائحتـه ثِقَـلًا ولا عَطَنًـا، كـما أن القبـور المنفـردة تمنحنـي إحساسًـا بالحميميـة والفرديـة، فهـا هـو قـبر أبي، هـا هـو قـبر جـدي، هـا هـو قـبر عمـي. نعـم!!!!!!!! وقـبر أمـي!!!! إذن هـي ماتـتْ. هـل كنـتُ مغيَّبًـا أو غائبًـا إلى هـذا الحـدّ؟ هـل فقـدتُ إحسـاسي بالزمـن لدرجـة أن الوجـوه كانـت تـتراءى أمـام عينـيّ ضبابًـا لا يكشـف عنهـا لـرأسي، لذاكـرتي، لتعـرُّفي؟

وهـا أنـتِ يـا راويـة تقولـين إن أمـي كانـت ترقـد كمـدا فـوق الدِّكَّـة! أي دكَّـة؟ هـل كنـتِ تقولـين عـلى خشـبة النَّعْـشِ دكَّـة؟ هـل كنـت تقصديـن بالرقـود كَمَـدًا مـوت أمـي؟ هـل أمـيّ هـي ذاكـرتي؟ أم أن الضربـات عندمـا تـأتي وراء بعضهـا البعـض تعيـد الذاكـرة وتعيـد الإحسـاس بوطـأة الفقـد؟

لمـاذا يـصرّ هـذا الهـواء عـلى إنعـاشي، إنعـاش الصـور في رأسي، إنعـاش الوجـوه لتـدبّ فيهـا الحيـاة، إنعـاش الإحسـاس بالمـوت والحيـاة معـا؟ أم أن

الإنعاش ولادة جديدة، خاصة وأنه يأتي بعد ذلك العطن داخل السور، بعد كل تلك المناظر السوداوية والعبثية معا؟ الموت هنا حياة بشكل أو بآخر، حتى لو كان حياة مؤجلة إلى وقت معلوم. أما الموت هناك فهو دماء وأرواح زاهقة وأرواح تخنق نفسها وأرواح ترفض الاعتراف بموتها، وكأن الحياة طعام يمكن للمرء أن يستغني عنه بإرادته.

لماذا أحسُّ بأن هؤلاء الموتى في قبورهم طيبون جدا؟ على الأقل كلٌّ منهم خطا خطواته، وعندما شعر بأنَّ طريقًا أخرى تناديه لبّى النداء راضيًا، وربما كان مَرْضِيًّا أيضا. وداخل السور شاهدتُ الموت المحتمل بعينيّ، فلقد كان كوب الزجاج الذي كسروه دليلا أو استباقا لفَتْكٍ وشيكٍ، وكان الغراب شاهدًا. هل كان يستعد لدفني أم أنه كان يُنذرني، ينصحني، يهمس لي بالهروب، بالنجاة، بالفرار بحياة لم تكتمل بعد؟

أذكر أنني مررتُ بالمقابر بالليل مرة واحدة، لا أذكر التفاصيل، لكنني كنتُ قد جئتُ في زيارة خاطفة ومررتُ لأقرأ الفاتحة على روح أبي، ومن المؤكد أن أمي كان حسُّها في الدنيا نابضًا ساعتَها. لكنَّ كلَّ المناظر أو كلَّ الحكايات التي تُروى عن المقابر ليلًا تم إخراجها في نفس الوقت أمام عيني أو على شاشة ذاكرتي. ومع ذلك لم أشعر بالخوف كأن الخوف الذي انتابني أثناء فراري بالحياة استحوذ على كل الخلايا في جسدي ولم يترك مساحة لخوفٍ جديدٍ، أو ربما أدركتُ أن الخوف لا فائدة منه، فما ضاع لن يُقابله شيء أهمُّ منه، على الأقل أنا آنسُ الآن وسط المقابر بأرواح أعرفها وتعرفني، أرواح لم تتحلَّق بالدِّكَّةِ حولي، لم تكسرْ كوبَ شاي، لم تستنفدْ رشفات شايٍ لي، لم تخطِّط بالفحم أقسامًا على جسمي، لم تتذكر أشياءً قدَّمتْها كأنها تتباهى بامتلاكي وتقسيمي وإزهاق روحي وبصماتي وتاريخي.

لا أعرف الطريق إلى مقابرنا من وسط الجبّانة، وكان عليَّ أن أسير حول المقابر لأصلَ إلى نهاية حدها بجانب الطريق، ثم أتجه يمينا إلى أن

أصل إلى العمود الكهربائي الثالث وبعدها أعطيه ظهري لأسير خمسين خطوة تقريبًا وأجد نفسي فوق السور الواطئ الذي يحدُّ مقابرَنا. لم أحس بأن الدم يضطرب داخلي. في كل مرة كنتُ أزور أبي، كنتُ أشعر بهدوء غريب، صمت تام، ربما رهبةً من المكان أو احترامًا له، أو حفاظًا على عدم خدش حُرمة الأموات وسكونهم أو بالأحرى سكينتهم، ولا أنطق إلا بالاستغفار وقراءة الفاتحة لأبي ولأموات الجميع والدعاء لهم فردًا فردًا. إن كنتُ أحضرتُ معي ماءً، أروي به نبتات الصبَّار. لكنني الآن بلا ماء وبلا سَكِينَةٍ وبلا صمتٍ.

أذكر الآن أنني تشاجرتُ مع أخي بالبيت الموجود في مكان ما داخل ذلك السور عندما ضرب أمِّي، وربما رجعتُ، أذكر الآن أن مجيئي تزامَنَ مع ضربِها ومع عيد الأم. لا أذكر شيئا بعد ذلك، لكن يبدو أنني أُصِبْتُ في المشاجرة، أو فقدتُ الوعي والذاكرة، وربما قُتِلَتْ أمي أو ماتتْ كمدًا أثناء ذلك. فها هو تاريخ وفاتها: مارس 2013، 31 مارس 2013، يعني أنها ماتت بعد عشرة أيام على الأكثر من المشاجرة. هل ضربها أخي مرة أخرى وماتت متأثرة بجراحها؟ أم أنها ماتت متأثرة بكمدها وحزنها وعدم تعقُّلها للنهاية العبثية لهذا السبب؟ وأنا الذي استغربتُ من أنهم كانوا يحيطون بالدِّكَّة من حولي! أبي وأمي! الرابط الأساسي لي الآن بالقرية. أو ربما قُطِعَ الرباط الأساسي.

الحمد لله على أن المقابر خارج السور، فيمكنني أن أجيء إليهما كلما جئتُ لزيارة أخويّ في المحافظة أو لزيارة أختي في المحافظة الأخرى. أذكر أنني أنا وأصدقائي كنا نفكر جديًّا في أن نشتري مقبرةً واحدة لنا جميعا على حواف الجيزة، في مدينة 6 أكتوبر مثلا، لنعلن بها من جهة السقوط الفعلي لمفهوم العائلة والعشيرة، ونرسِّخ بها مفهوم الصداقة الذي لا يعتدي على خصوصية ولا يطمع في دمك. لكن النقود ساعتها لم تكن متوفرة، فأجَّلنا الفكرة إلى موعد قادم لا أعرف

إن كان قد حانَ ودفع أحدهم المال نيابة عني في الشهور أو السنوات الفاصلة بين عيد الأم وبين شهر ديسمبر الآن...

***

- يا أستاذ. يا أستاذ.

سرتْ قشعريرةٌ في جسمي بالرغم من أنني كنتُ قد بدأتُ في الإحساس بالتجرُّدِ، بالنظر إلى كل مخاوف العالم نظرة حيادية أو نظرة تبتعد للوراء قليلا. مَنْ ذلك الذي يناديني في هذه الجَبَّانَةِ المترامية التي يخشى أي أحد أن يدخلها بالليل؟ نظرتُ فإذ برأسٍ ويدٍ. نظرتُ مستغربًا، يمتزج في عينيَّ الخوف والذهول.

- ألا تعرفني يا أستاذ؟

- أعرف من؟

- أنسيتَ بسرعة جلستَنا والسيجارة التي أخذتُها منك؟

- جلسة... وسيجارة!

- أنا الذي كنتُ معك على الترعة. أنت الذي أخرجتني من محبسي ما بين التربة والأسفلت. أنت الذي فككتَ قيدي بأن جلست معي ولم تخف. أتجيء الآن لتخاف وتستغرب منظري؟!

- لا أستغرب. لكنني ظننتُكَ رحلتَ من ساعتها إلى باقي جسمك وخرجت منها سالمًا متوجِّدًا إلى بارئك.

- المشكلة هنا يا أستاذ.

- كيف؟

- أبحث عن جثتي ولا أصل إليها.

- كانت مشكلة روحك مع الدم. هل صارت مشكلتك الآن مع الجسد؟ مع الجثة؟

- ماذا أقول؟ يبدو أنني تأخرتُ عليها طويلا. عشرون عاما وربما خمسة وعشرون. فالمرء عندما ينحصر عداد زمنه في الخطوات التي

تـدب عـلى طريـق، عندمـا تنحـصر رؤيتـه مـن رأس يـكاد نصفهـا يكـون تحـت الأسـفلت، عندمـا تنحـصر ملامسـتُها للعـالم في يـد تـبرز مـا بـين التربـة والأسـفلت كفزَّاعـة أو نبـات صبـار لا يقربهـما أحـد، تختلـط عليـه الأيـام والشـهور والسـنوات.

- وهل بحثت في كل المقابر؟

- فتشـتُ مقـبرة عائلتنـا قـبرًا قـبرًا. فتشـتُ مـا بـين القبـور فربمـا تآكلـت معـالم القبـور عـلى مـر الزمـن. قلـتُ: ربمـا ضاقـت المقـبرة فانتقلـوا إلى مقـبرة أخـرى. لم أجـد لنـا اسـما آخـر. ولم تكـن مقبرتنـا قـد امتـلأت.

- لا أعـرف كيـف أسـاعدك يـا والـدي، ولا أعـرف إن كانـت الـروح تصعـد مـن الجسـد عـلى أي وضـع أم لا بـد أن يكـون الـدم مـا زال في الجسـد كي تغـادره الـروح. لكـن عندمـا يتصفـى الـدم قطـرة قطـرة، هـل تخـرج الـروح وتلتصـق بالـدم أم أنهـا تخـرج مـن الجسـد عنـد الأظافـر أو مـع الأنفـاس؟ ومـا دامـت روحُـك ظلَّـتْ قرينـةَ الـدمِ الـذي تشرَّبـه تـراب الطريـق وانصبَّ عـلى نَفَسِـه الأسـفلتُ، ربمـا لـن تسـتطيع التعـرف عـلى جثتـك إلا بـأن تعيـد ضـخ الـدم المـشرد مـا بـين الأسـفلت والتربـة في عروقهـا. وكيـف تصـل إليهـا؟ كيـف تجمِّـع الـدم؟ لسـتُ أدري يـا والـدي، لسـت أدري.

- هـل سـأظل كـذا مـشرَّدًا مـا بـين قـبر وآخـر؟ إن كان كلامـك صحيحًـا، فعـليَّ أن أحـس بالـدم، بالنبـض. وكيـف لي؟ لا يمكننـي أن أنـزع رأس أحـد وألصـق رأسي مكانـه. فعندمـا أنزعهـا سـينفر الـدم، سـيختلط بالتربـة، بالرمـال، وتظـل روحـه سرمديـةَ التفتيـتِ وأنـا لا أقبـل أن أريـح روحـي عـلى حسـاب روح شريـدة. هـل أتقـرب بقربـان للـه؟ فالقربـان عـلى الأقـل منـذور لـه. هـل ألصـق رأسي بسرعـة في رأس جَـدْيٍ أو حتـى ذئـب؟ ومـن أيـن لي بهـذا أو ذاك؟ وكيـف لي أن أضمـن أن تتصالَـحَ روحـي مـع دمِ قُرْبَـانِي؟ كيـف أضمـن ألا تتصـارع رأسي مـع جسـم الخـروف أو الجـدي أو الذئـب، وأظـل في صراع أبـدي أتنقَّـل مـا بينـي وبـين الحيـوان الـذي انتقلـتُ

إليه، كتنقُّلي الآن بين قبر وقبر لأظل روحًا ضائعة وجسدًا ضائعًا وكأن المشرحة ينقصها قتلى؟!

***

أحسستُ بالرغبة في الكلام، كأنني سأفرِّغ رواية كاملة من رأسي في جهاز التسجيل بهاتفي، كأنني سأضخُّ عدة روايات في قلبي، كأنني سألتقي بي وابتعد عني في نفس الوقت، كأنني سأكون هناك وأكون هنا، كأنني سأكون الغراب وأكون الهدهد، لا، فليس الهدهد والغراب متناقضين أو يمثلان طرفين أو حدين أو اتجاهين متقابلين، الهدهد هو ذلك الذي قرأ النبوءة، لكن شيئًا ما/ أحدًا ما حاول أن يطمسَها من رأسه، ومنذ ذلك الحين أخذ الهدهد ينقر في الأرض ليبحث عنها، لا أريد أن أقول بلا جدوي، فالبحث سيوصله يومًا ما إلى ما يريد، سيوصلني يوما ما إلى ما أريد، إلى ما أحسُّ به، إلى ما أشتهي، إلى ما يجمعنا سويًّا. والغرابُ رأى نبوءة الملائكة، رأى الدم يُسفك، رأى الفساد في الأرض، ولكنه حدسَ قدرًا مما لا تعلمه الملائكة، فاتخذ المحبة والحياة والإنذار والقصاص وتكريم الموتى طريقًا له، وها أنا أدين له بحمايته لي وتنبيهي للطريق، كما حماني وأطعمني وأرشدني للطريق من قبل في «طقوس العبور»، وكنتُ أظن أنَّ طريقَ «طقوسِ العبور» هي مفتتح الطرق، ولكنني الآن أكتشف أنها أوصلت إلى طريق ربما كان حتميًّا، ولكنه طريق يضغط على الذاكرة، يضغط على الصبح الذي يتنفس، يضغط على «ورد الجناين»، يضغط على بصيرة كانت تحلم بالحياة. فقفزتُ من أعلى السور، تاركًا الغراب والهدهد يكملان نبوءتيهما، يسعيان للوصول إلى مفتتح الطريق الذي يصب في قلبي وقلبِ كلِّ من/ما له قلب، سواءً أكان يرعى ذلك القلب المتفكّر أم يطمس تفكُّرَه ويتركه مرتعًا للسفك والزهق والافتراس.

وفي الوقت ذاته، احترتُ في موضع البداية، فلا أستطيع أن أتخيَّرَ نقطة واحدة أبدأ منها، ربما لأنني لا أستطيع أن أستوعبَ ما أودُّ أن أقوله أو ينتظم بعد في رؤية كلية، في رؤية متَّسقة منتظمة. كل ما أدركُه الآن أنني واقف على حدودٍ، بالرغم من أن البوابة والسور يبتعدان نصفَ كيلومتر على الأقل، لكنني وجدتُ نفسي أنهض من جلستي أمام قبر أبي وأقف، لا أدري لماذا، لكنني شعرتُ بالرغبة في الوقوف كأنني أتوقَّع أن يخرج أبي ليحتضنني، وفي الوقت ذاته كنتُ أدرك عبثَ توقُّعِي. كنت أحس بأنه يسمعني حسبما أعتقد أو حسبما تتداوله الحكايات عن الموتى الذين يشعرون بمن يزورهم أو يدعو لهم، وقد يأتون إليه في المنام للاطمئنان أو التشجيع أو المساندة أو التواصل.

لا أدري لماذا أحسُّ بأن رأسي بدأتْ تثقل كأنني سأقع بعد لحظة، فأجلس ثم أمدد جسمي وأضع رأسي على قبر أبي. ليس دَوَارًا، فلا أنا وسط بحرٍ ولا أنا مُرهَقٌ إلى هذا الحد مع أنني لم أنم منذ ساعات طويلة، ولا أعاني من ضغط دم منخفض. فقط أحسُّ بأن رأسي تروح وتجيء هرولة وعَدْوًا، وأن قلبي كأنه ينبض نبضةً فَرِحَةً أو نبضةً مستقبِلةً لمفاجأةٍ لا أعرفها ولا يعرفها قلبي.

تروح رأسي وتجيء، كأنها تقطع المسافة بين هنا وهناك دون أن تتوقف. ما هنا؟ وما هناك؟ هل هنا كل ذلك الذي يلتقي في رأسي وقلبي الآن ويفور ويهدر منذ أن قفزتُ من أعلى السور؟ أم أنه ذلك الذي يمتد منذ سنوات ويحضر أيضا بصورة ضبابية كأنه واقع في غبش لا يظهر منه بشكل واضح؟ أم أنه ما يجمع بين هذا وذاك؟ وهل يمكن أن توجد «هناك» مستقلة في ذاكرتي بعيدا عني؟ أم أن ذاكرتي ذاتها هي أرضٌ بكل أبعادها وزواياها مهما تنافرت هذه الزوايا والأبعاد، فمهما ابتعدت تلتقي كلها في نقطة واحدة تمثل القلب، أيًّا كان الدم الذي يصب فيه، وأيًّا كان الدم الذي يطرده هذا القلب؟

كيف يمكنني أن أقطع حبلا واصلا بين مكانين، مكان طُرِدْتُ منه منذ ساعات قلَّتْ أو كثُرتْ، سواء أكان طردًا حقيقيًّا أم مجازيًّا، ومكان أرى عمليًّا أنني سأذهب إليه بعد أن أودِّع أبي حيث زوجتي وأطفالي؟!! وهل أنا الذي أقطع الحبل الواصل؟!!

لم أطرد نفسي، لم أخرج طواعية. من يقطع الأحبال والأرحام وقنوات الدم الممتدة بين قلب ونبضِ شجرة؟! هل يمكن لأي مكان آخر - إذا تمكَّنتُ مع أخويّ المغتربين في المدن أن نشتريه - هل يمكنه أن يمدَّ الشرايين بين أشجاره وقلوبنا؟ هل يمكنه أن يتسلل خفية إلى بلدتنا لينقل بصماتنا، أنفاسنا، ذكرياتنا، تاريخنا، منها إليه؟ كيف يكون إحساسي بمكانٍ جديد؟ كيف سأُوهِمُ نفسي بأن المكان الجديد يمتد في عروقي منذ أربعين سنة وأكثر؟ كيف أُقْنِعُ المكانَ الجديدَ بأنني نفسُ صاحبه القديم؟ كيف أوهمه بأن يتخلَّص من بصمات صاحبه الأول ويزرع بصماتي مكانها؟ كيف وكيف وكيف؟

أفتح عيني. أنظر للسماء، وأجد لديَّ رغبة مُلحَّةً في أن أعدَّ النجوم، فأبدأ في العدِّ، وفي الوقت ذاته أحاول أن أفكِّرَ في فعلِ أي شيءٍ أو التخطيط لخطوتي القادمة. وبالرغم من أنني أعرف أنني ينبغي عليَّ عمليا أن أقرأ الفاتحة لجميع الأموات من العائلة التي لم أعد أحسُّ الآن بوجودها أو على الأقل لم يعد لها مكانٌ أشيرُ إليه وأقول:

- هذا مكاني.

لكن هؤلاء الموتى ينتمون لزمان كان ملتصقًا بمكاني، أو ربما كانوا، ومنهم من كان متغرِّبًا في البلدان مثلي، لكنه كان يعود كلَّ حينٍ وحينٍ إلى مكانٍ يجمع الجميع.

أحسُّ بأنني لن أعود، أو على الأقل لن يسمح لي أحد بالعودة، أو لن يقْبَلني. أفكِّرُ عمليا أن أختم أربعين عاما من عمري، أو تزيد قليلا، وأبدأ في العدِّ من جديد كأن الزمان عملية حسابية على آلة

حاسبة يمكنك أن تنهي العملية في أي وقت تشاء بالضغط على زرٍّ العودة إلى الصفر والبدء من جديد، مع أنني أدرك تمامًا أن هذا مستحيل وأنني بعد خمس دقائق على الأكثر من الآن سأتذكَّرُ المكان، سأتذكر سنواتي المهدورة، سأزرف دمعة وأحس بأنني مخنوق كأن شيئًا يربط حبلًا حول روحي ليثقل على قلبي ثقلا لا أعرف له سببًا واضحًا لكثرة الأسباب وتشابكِها، سأشتاق إلى أن أرجع بخطواتي لألامس نقرات الهدهد جنوب البيت، لأشكر الغراب الذي تركته هناك يعود إلى الشجرة بمجرد انتهائه من تنبيهي وحمايتي، لأصوّر شجرة التين لأحتفظ بها كي أستطيع أن أستحضرها إذا ما عاندتْني ذاكرتي، إذا ما تعرضتُ لخبطة أخرى في أي مكان من هذه الأرض الممتدة، الأرض العنيدة والمعاندة والطيّعة في نفس الوقت، الأرض التي تتداخل أصواتها لتشوش على الذاكرة وتنعش الذاكرة في الوقت ذاته، الأرض التي تقول لي: «أنتَ مني»، وفي نفس الوقت تُنكرني وتمثّل بي وبأصواتي وبذاكرتي، كأنني ابن «الأرض السوداء»، وبعض الآخرين أبناء «الأرض البيضاء»، ما بين البياض والسواد تضيع أرواح، تتوه أراوح، تُزهق أرواح، تَزهق أرواح، تهاجر أرواح، تنكفئ أرواح، ويظل الغراب حارسا أبديا ينذرنا ويحذرنا ويلفت انتباهنا إلى أننا ابتعدنا عن الطريق كثيرا...

عليّ الآن أن أنام هنا، فلا طاقتي تسمح لي بالعودة إلى موقف السيارات لأخرج من جهينة، ولا السيارات نفسها موجودة الآن في الموقف، فتتوقف الحياة عند الساعة العاشرة مساءً تقريبا. أستريح قليلا، وفي الصباح أتمنّى أن يكون حارس البوّابة الذي قابلتُه قد انصرف ليحل محلّه حارس جديد، فلن يكون هناك كرسيٌّ فارغ في أي سيارة أجرة خارجة من جهينة، والموقَف ذاته داخل السور. وسأدخل كأنني قادم للتو من السفر. سأجلس على أحد المقاهي لأتناول إفطاري وأشرب الشاي والشيشة وأنا أتأمل كل الوجوه العابرة للشارع أمام

المقهى الموجود في موقف السيّارات. سأستنشق الهواء بعمقٍ وألقي نفسي في السيّارة التي عليها الدور لأذهب إلى سوهاج أو طهطا حتى أركب سيارة أو أتوبيس إلى الجيزة. وربما أفكر في زيارة أخويّ في سوهاج في مرة قادمة، فلا يمكنني أن أتأخر على زوجتي وأولادي لأكثر من هذا. عليّ قبل أن أنام أن أتَّصِلَ بزوجتي لأطمئنها وأسمع صوتها وأصوات أولادنا.

- ألو

أسمع صوت زغرودة راوية، وتختلط الزغرودة بالبكاء، وتقول:

- أخيرا يا راوي، أخيرا سنلتقي في بيتنا.

أقول لها بلهفة وحسرة:

- لا أعرف كيف حدث كل هذا. كابوس وانزاح بإذن الله. اللقاء أكيد غدا إن شاء الله. أحبُّكِ. أحبُّكم جميعا. هاتي الأولاد لأسمع صوتهم.

تنادي الأولاد وتتواصل زغرودتها، فأحسُّ بالالتئام وانشراح صدري...

27 مارس 2010 – 24 يوليو 2018